

جـم سلطان والدبلوماسية الدولية

موضوع اللاجئين السياسيين في الشرق الإسلامي من الموضوعات التي استدعت انتباه المؤرخين في الفترة الأخيرة^(١). وهي فضلا عن أنها تمثل اتجاهًا معينًا في أبحاث التاريخ الإسلامي له جدته وأهميته فإنها تعتبر دعوة لإعادة النظر في بحث طبيعة العلاقات الخارجية للدول الإسلامية وخاصة ما كان منها ذا صلة بالدول الأوروبية. ويهمنا في هذا الصدد وعلى وجه التخصيص، مصر الإسلامية المملوكية. فال مؤرخون المصريون في هذه الفترة، لا يهتمون عادة إلا بذكر خبر وصول القصاد والرسل والسفراء إلى القاهرة ومغادرتهم لها، أو بإرسالهم من قبل سلاطين المماليك. وقل أن نجد منهم من يهتم بما وراء ذلك، إلا إذا كان ذا حظوة لدى السلطان القائم بالأمر، تتيج له الاطلاع على حقائق الأمور ومداخلها ومخارجها. واهتمامهم هذا يكاد يقتصر على ما هو خاص بالدول والإمارات الإسلامية. أما ما كان منها خاصًا بالدول الأوروبية التي تربطها بالدولة المملوكية مصالح عديدة، فإن الباحث يرضيه التعب حتى يظفر بمخبر قصير مقتضب يشير أحيانًا إلى اسم الدولة التابع لها الرسول، ولكنه في غالب الأحيان ينسب إلى طوائف الفرنج مجتمعة. هذا، بالإضافة إلى أن العلاقات الخارجية لا يمكن أن توفى حقها من البحث العلمي الدقيق إلا بالاطلاع على الوثائق التاريخية من مكاتبات أو معاهدات. وللأسف الشديد فإن هذه الوثائق الخاصة بمصر المملوكية فقدت معظم صورها الأصلية المكتوبة باللغة العربية، ولم يصل إلينا منها إلا النزر

(١) انظر :

Wiet: Deux princes ottomans à la cour d'Egypte, dans B. I. E., T. xx, Le Caire 1938, pp. 137-150 - Réfugiés politiques ottomans en Egypte, dans Arabica, T. 1 Sept. 1654, Fasc. 3, pp. 257-271.

القليل أو النسخ المترجمة إلى اللغة اللاتينية أو اللغات الأوروبية المحفوظة بدور الوثائق والمكتبات في أوروبا وفي استانبول .

وجم سلطان هو أحد هؤلاء اللاجئين السياسيين إلى مصر ثم إلى رودس والتجأؤه إلى مصر وما أعقب ذلك من نشوب الحرب بين العثمانيين والمماليك ، يفسره تاريخ العلاقات بينهما منذ عهد بايزيد الأول وبرقوق وابنه الناصر فرج^(٢) .

فما حدث في عام ١٤٨٤ ، كان على وشك الحدوث بين الدولتين في مطلع القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي ، لو لم يحل دون ذلك غزو تيمورلنك لبلاد الشام وآسيا الصغرى ، وهزيمة لبازيد الأول في موقعة أنقرة وأسره له في عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢ م . ومرجع ذلك إلى تنازع النفوذ بين الدولتين بآسيا الصغرى ورغبة العثمانيين في توحيد آسيا الصغرى تحت رايتهم والقضاء على النفوذ المملوكي بها . وقد خرج العثمانيون من معركة أنقرة بدرس بالغ ، وهو أن الوقت لم يحن لتنفيذ خطتهم هذه بحمد السيف . وكانت سياستهم تقوم على الاحتفاظ بالوضع الراهن في آسيا الصغرى ، دون أن يؤدي ذلك إلى التصادم مع المماليك أو مع غيرهم من القوى المجاورة ، حتى يفرغوا من تأمين فتوحاتهم في أوروبا . ولذلك فإن الفترة الواقعة بين عام ١٤١٣ ، وهو العام الذي تمكن فيه محمد الأول من تصفية اخوته المنافسين له على العرش ، وبين عام ١٤٥٣ ، وهو تاريخ فتح القسطنطينية ، مليئةً بحوادث الحرب الباردة بين الدولتين وحرص كل منهما على تثبيت سيادتها على الإمارات الحجازية بينهما وخاصة إمارة قرهان وإمارة دغاادر . فالمماليك لم يتركوا فرصة إلا اغتتموها ، لتدعيم سلطانهم على هاتين الإماراتين ، كما حدث في عهد المؤيد ، وبرسباى وإينال ، وخشقدم وقايتباى . وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة أن الخطابات المتبادلة بين الدولتين والتي تعبر عن مظاهر

(٢) عن العلاقات الودية بين المماليك والعثمانيين في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر

الميلادي انظر :

Bjorkmann : Die frühesten türkisch - agyptischen beziehung, in 14 jahrundert, dans Mélanges Fuad Koprülü, Istanbul, 1953.

الود والصداقة وتبادل التهاني والاحتفالات بمناسبة الانتصارات على المسيحيين لم تكن إلا ستاراً يُخفي وراءه حقيقة العلاقات من تغايرٍ وتحاسدٍ وتربصٍ كل منهما بالآخرى .

ولم يكن جم أول اللاجئين العثمانيين إلى مصر ولا آخرهم . فقد التجأ إليها كثيرون من أمراء القرمانية والدلفادارية الخارجين على طاعة العثمانيين . وشهد بلاط العثمانيين أيضاً كثيرون من هؤلاء الأمراء ومن أمراء المماليك^(٣) .

وقد أخذ محمد الثاني بعد فتحه للقسطنطينية يتجه من جديد إلى العمل على توحيد آسيا الصغرى وترقب الأسباب لذلك . وكاد يفرغ من هذه المهمة في السنوات الأخيرة من حياته ، وكاد أن يؤدي ذلك إلى الحرب مع المماليك لولا أن فاجأه الموت وهو بآسيا الصغرى في منتصف عام ١٤٨١ . ثم أعقب ذلك النزاع بين ولديه ، بايزيد الثاني وجم ، والتجاء جم إلى القاهرة . ولكي نفهم ترحيب قايتباي بجم ومساعدته له ، لابد أن نرجع إلى الوراء إلى عصر إينال وعصر خشقدم لنتتبع حقيقة العلاقات بين الدولتين .

فعلى الرغم من تبادل السفارات ورسائل التهاني بين محمد الثاني وإينال بمناسبة فتح القسطنطينية وبمناسبة انتصاره في موقعة نوڤوبردا على جورج برانكوڤتش ملك الصرب في عام ١٤٥٦^(٤) ، فإن الباحث يلمس بوادر الاحتكاك بين الدولتين .

(٣) انظر :

مجموعة الرسائل المتبادلة بين سلاطين العثمانيين والمماليك بالخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس (المخطوط يعد للنشر) —

Krammers : De la défaite d'Ankara à la prise de Constantinople, dans R. E. I. , 1938 cahier I .

Darrag: L'Egypt sous le règne de Barsby (thèse sous presse) chap. x, La frontière orientale.

Wiet : Deux prinies, Annexe I, p. 147, (٤)

فيما يختص بفتح القسطنطينية انظر :

خطاب محمد الثاني إلى إينال يبشره بالفتح [فريدون بك : مجموعة منشئات السلاطين ، =

فمحمد الثاني لم يكتب بإبلاغ نبأ فتح القسطنطينية لإينال بل قام بإبلاغه أيضا إلى شريف مكة ، وطلب منه إعلان هذه البشري من فوق منابر مكة وتوزيع الصدقات التي أرسلها بهذه المناسبة على فقراء الحرمين . ولم ينظر السلطان المملوكي إلى هذا الاتصال المباشر بشريف مكة بعين الارتياح ، واعتبر ذلك تحطيا له بوصفه صاحب السيادة على الحرمين ، ولم يغب عنه خطورة هذا الاتجاه الجديد للعثمانيين نحو الأراضي المقدسة . ولذلك لم يفته لفت نظر السلطان العثماني إلى تحطيه إياه ، فتولى الرد نيابة عن شريف مكة وأرفق رده هذا برّدٍ شخصيٍّ من شريف مكة ، الذي لم يفته بدوره أن يطلب المزيد من إرسال الصدقات وأن يرسل إلى محمد الثاني بعض الشاشات المزمنة بركةً من الله^(٥) . وإذا كان إينال قد قاوم هذا الاتجاه للعثمانيين برفقٍ فقد قاومه خشقدهم بشدةٍ وعنف .

أما في آسيا الصغرى فإن كلاً من الماهلين عمل على الحدّ من نفوذ إبراهيم بك ابن قرمان والقضاء على أطماعه التوسعية على حساب كلٍّ من الدولتين وإجباره على الاعتراف بسيادتهما . فقد قام هذا الأمير جرياً على سياسة أسلافه بمهاجمة الأراضي العثمانية في غرب آسيا الصغرى منتهزاً الفترة الحرجة التي مرت بالدولة العثمانية في أوائل سلطنة محمد الثاني ثم انشغاله بالاستعداد لمهاجمة القسطنطينية . وانتهت هذه

= ج ٢ ، ص ٢٢٨ - ٢٣١ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٥٧ - ٢٦٣] - جواب إينال المؤرخ في ٢٠ من ذي القعدة ٨٥٧ هـ - مخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٥٧ ب - ١٦٠ ب ؛ فريدون بك : نفس المرجع ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩] - رد محمد الثاني المؤرخ في ٢٢ من ربيع الآخر ٨٥٨ هـ والذي ورد إلى القاهرة في ٣ من شعبان ٨٥٨ هـ [مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ١٦٠ ب - ١٦٢] وفيما يختص بانتصار محمد الثاني على ملك الصرب انظر :

خطاب محمد الثاني إلى إينال المؤرخ في ٢ من ذي الحجة ٨٥٩ هـ والذي ورد إلى القاهرة في آخر جمادى الأولى ٨٦٠ هـ [مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ٧٨ ب - ٨٠ ب] - جواب إينال المؤرخ في أول رجب ٨٦٠ هـ [نفس المرجع ، ورقة ٨٠ ب - ٨٣] .

(٥) فريدون بك ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ [خطاب محمد الثاني إلى شريف مكة] ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ [جواب إينال نيابة عن شريف مكة] ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ [جواب شريف مكة] .

الحرب كما انتهت سابقتها بانسحاب القرمانيين بمجرد عبور الجيش العثماني للبوسفور والإسراع بمرض الصلح والاعتراف بالسيادة العثمانية ، وهو الصلح الذي تم في ١٢ فبراير ١٤٥٤^(٦) .

ولم يسكت إبراهيم بك على هذه الهزيمة وحاول الحصول على مساعدة الدولة المملوكية . فوصل قاصده إلى القاهرة في ١٧ محرم ٨٥٩هـ / يناير ١٤٥٥م يشكو من محمد الثاني ، فلم يلتفت السلطان إليه^(٧) .

وأثاره هذا الانصراف عنه ، فقام في العلم التالي بالإغارة على أطراف الدولة المملوكية المجاورة لإمارته ، واستولى على مدينة طرطوس وقلعة الكولك . واضطر إينال إلى تجريد الحملات ضده . وتبادل الفريقان الهزيمة والانتصار وانتهت هذه الحرب باسترجاع المالك لممتلكاتهم ثم أتبعوا ذلك بالتوغل داخل إمارته يجرقون ويخربون^(٨) . فأجبروه على طلب عقد الصلح في عام ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م والاعتراف بالسيادة المملوكية وتعهد بأن يحسن الجوار مع نواب السلطنة المملوكية ، وإلا يتعرض بسوء ولا بضرٍ لجزيرة قبرص^(٩) .

وبينما كان إينال يقوم بالمحافظة على « حرمة ناموس الملك » بحربه التأديبية ضد القرمانيين كان محمد الثاني يعمل بدوره على تصفية الإمارات الأناضولية الباقية . فضُمَّت

Hammer: Histoire de l'empire ottoman, trad. J. J. Hellert, (٦) vol, II, p. 369-Babinger; Mahomet II Le Conquerant et son temps (1432-1441) , trad del Medico, Paris 1954, pp. 91-92, 135.

(٧) منتخبات من حوادث الدهر ، ص ٢٢١ - ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٢٣

(٨) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،

٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٦ - ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٣٩ - ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٩) مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ١١٩٥ - ١٩٨ [رد إينال على خطاب إبراهيم بك بن

قرمان المؤرخ في ٢٠ من جمادى الآخرة ٨٦٢ هـ] - منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٣١٨ -

ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٥٥ .

فيما يخص العلاقات بين إبراهيم بك وقبرص انظر :

الدكتور سعيد عاشور . قبرص والحروب الصليبية ، ص ١٦٢ - ١٦٤

إمارات كerman وآيدين وهنتشا وطرايزون وسينوب^(١٠). ولم يبق أمامه لكي ينتهي من مهمة توحيد آسيا الصغرى سوى إمارتى قرمان ودلغادر .

وما أن انتهى من ضم بلاد البلقان وشبه جزيرة المورة حتى وجد أن الوقت قد حان ليجهز على القرمانيين . ففضلاً عما دأبوا عليه من طعن العثمانيين فى ظهورهم وهم يحاربون بالجهة الأوروبية ، فإن إبراهيم بك الذى طالت أيامه فى الإمرة وازدادت عظمته قد وجدت فيه البابوية والبنادقة منافساً خطيراً لمحمد الثانى فأطلقوا عليه لقب قومان الكبير Grand Qaraman تشبيهاً له بالسultan العثمانى . وعمل البابا كالكستس الثالث ريبوس الثانى على حثه على الاشتراك فى آخر مشروعاتهم الصليبية ضد العثمانيين . وجاءت الفرصة المواتية إلى محمد الثانى عندما توفى إبراهيم بك فى عام ١٤٦٤/٨٦٨م ودفنته كراهيته للعثمانيين إلى حرمان أولاده من زوجة الأميرة نفيسة عمة محمد الثانى من حقهم فى عرش الإمارة وفضل عليهم ابنه إسحق بك الذى رُزق به من زوجة ثانية ، ففرّ بقية اخوته إلى استانبول يطلبون العون والمساعدة^(١١) .

فى هذا العام الذى قرر فيه محمد الثانى انتزاع إمارة قرمان بحجة التدخل لحماية حقوق أولاد عمته كشف النقاب عن سياسة العثمانيين الحقيقية إزاء المالك ، فانتهت سياسة المداراة وبدأت سياسة الجفوة والربص . فالمالك يعلمون تمام العلم أن الخطوة التالية لذلك هى التهام إمارة دلغادر والقضاء على النفوذ المملوكى بآسيا الصغرى . وبدأ

(١٠) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤

Hammer : op. cit, II, p. 369, III, pp. 69-71, 79-85-Babinger: op. cit, pp. 19-29-Kritovoulos: History of Mehmed the conqueror, translated from the Greek by Charles. T. Riggs, Princeton, 1954, pp. 163-165, 165-168, 173-175.

(١١) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٧٧ ، ٥٨١ - ٥٨٢

Hammer: III, pp. 115-122 - Babinger: p. 19, 221-222, 223, 224-225, 281-Alderson : The structure of the Ottoman dynasty, Oxford 1956, see table LVII (allianus with Karamangullari) .

محمد الثانى تدخله فى شئون إمارة قرمان بإرهاب السلطنة الملوكية لمنعها من مد يد المساعدة لإسحق بك . فجاء قاصده إلى القاهرة فى ٢٨ رمضان ٨٦٨هـ / ٤ يونيو سنة ١٤٦٤م يحمل مكاتبته إلى خشقدم التى أغفل فيها ذكر ألقابه السلطانية واستهلها بمخاطبته بلقب المقر الكريم وهو اللقب الذى جرى ديوان الإنشاء المملوكى على تلقيب سلاطين العثمانيين به باعتبارهم دون سلاطين الممالك مرتبة . هذا إلى أن القاصد العثمانى امتنع عن تقبيل الأرض أمام خشقدم حسبا جرت به التقاليد^(١٢) . وكان هذا إشعاراً واضحاً بتحول ميزان القوى وإنذاراً لم يخف أمره . ورد خشقدم على هذه الإهانة بالمثل فرفض إرسال قاصد من قبله ردّاً على هذه السفارة وطالب من القاصد العثمانى أن يفادر القاهرة حاملاً معه جوابه والهدايا التى رد بها هدايا محمد الثانى^(١٣) .

وفى العام التالى أغار محمد الثانى على أمارة قرمان . ولم يتمكن إسحاق بك من الصمود إذ أن خشقدم توانى عن مساعدته ، وانتهى أمره بالتجائه إلى حسن الطويل وتنصيب أخيه الأكبر بير محمد مكانه على عرش الإمارة . وكان حسن الطويل أمير قبيلة الشاه السوداء قد غدا قوة كبرى فى هذه المنطقة وامتدت مملكته من إمارة قرمان غرباً حتى خراسان شرقاً ورأى فى مساعدته لإسحق بك فرصة للعمل على زيادة رقعة مملكته على حساب الدولتين الملوكية والعثمانية . وعلى الرغم من أن خشقدم كان يخشى قوته الصاعدة فقد تفاضى مؤقتاً عن أطماعه ، وقبل التحالف معه ضد محمد الثانى الذى يمثل خطراً مزدوجاً على كليهما وتقدم إسحق بك تسانده قوات حسن الطويل وتمكن من استعادة بعض المدن القرمانية واتخذ من مدينة لارند مقراً له^(١٤) .

(١٢) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٧١ - ٤٧٢ - فيما يختص بلقب المقر الكريم ، انظر الدكتور حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ، من ٤٨٩ - ٤٩٤ .

(١٣) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٧٣ .

(١٤) نفس المرجع السابق ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ . ٤٨٣ - ٤٨٤ ، ٤٨٦ - ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٣ - الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر . بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، =

وقابل محمد الثاني هذه المناورة بأن مد أصابعه إلى إمارة دلغادر التي تربطه بأمرائها
صلة النسب والقرابة. وأحس خشقدم بتحول الأمير الدلغادري أرسلان بك عنه نحو
العثمانيين .

وخشى خشقدم أن ينتهى الأمر بالتهام إمارة دلغادر وبالقضاء على السيادة
الملوكية فى آسيا الصغرى . فنشطت الدبلوماسية الملوكية لإجبار العثمانيين على وقف
عملياتهم الحربية بآسيا الصغرى والإسراع بجيوشهم عبر البوسفور إلى الجهة
الأوروبية واتجهت أنظارها نحو البندقية مستغلة صداقتها لها وحرصها على مصالحها
التجارية معها ، وتحفزها للقضاء على الخطر العثمانى الذى أصبح يهدد مياهها الإقليمية
ولم يغب هذا الخطر عن محمد الثانى فاتجه بدوره إلى تأمين الجهة الأوروبية عارضا
الصلح على البنادقة حتى يتفرغ للممالك وقد أصبحت الحرب معهم قاب قوسين أو
أذن . واقضى الأمر أن يتظاهر خشقدم بالرغبة فى إعادة علاقات المودة مع محمد الثانى
فنادر القاهرة إلى استانبول قاصدا مصرى فى ٢٧ رجب ٨٦٩ هـ / ٢٥ مارس ١٤٦٥م
رداً على السفارة العثمانية السابقة إلا أنه عاد فى ربيع الأول من العام التالى / أكتوبر
ونوفبر ١٤٦٥ يخبر بأن ابن عثمان باق على عداائه ويحمل معه جواباً على مكتابة
خشقدم يكفى أن تعلم أنها على قول المعاصرين لم تنصف السلطان الملوكى من حيث
عدم ذكر ألقابه السلطانية والإصرار على مخاطبته بلقب المقر الكريم^(١٥) . وفى نفس
الوقت مهد البنادقة المقيمون بالاسكندرية للاتصال بين خشقدم وحكومتهم ، ووصل
السفير للمملوكى إلى البندقية فى نوفمبر ١٤٦٥ فى الوقت الذى كانت فيه مفاوضات
الصلح دائرة مع السفير العثمانى . وقد وجدت البندقية فى العرض الملوكى ما يحقق
مصلحتها فبادرت بقطع مفاوضات الصلح مع العثمانيين^(١٦) . وكان هذا إنذاراً كافياً

= المجلد الرابع العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ٢٠٢

(١٥) منتخبات من حوادث الدهور، ص ٤٩٥ ، ٥٠٨ - ٥٠٩ - مخطوط رقم ٤٤٤٠ ،

ورقة ٧٦ ب - ٧٨ ب [خطاب محمد الثانى إلى خشقدم] .

Babinger : p. 294. (١٦)

لمحمد الثاني اضطره إلى التريث والتمهل في إتمام توحيد آسيا الصغرى حتى لا يعطى الفرصة للماليك والبنادقة للإطباق عليه . وانتهى الأمر بتجميد الموقف بين الدولتين مؤقتاً .

وأتاح هذا لحشقدم أن يسترد أنفاسه ، فأخذ يدبر أمر التخلص من الأمير الدلنادرى أرسلان بك الذى خرج عن طاعته ومالاً العثمانيين ، ووجد فى أخيه شاه بوداق الذى كان لاجئاً بمصر منذ أيام الأشرف إينال ، ما يحقق أهدافه فخلع عليه خلع الإمارة وغادر القاهرة وبصحبته أحد الفداوية الذى انقضّ على أرسلان بك وهو يخطو داخل جامع مرعش ليؤدى صلاة الجمعة^(١٧) .

وقذف محمد الثانى فى المعركة بأخيه الشاه سوار وكان لاجئاً باستانبول منذ وفاة أبيه سليمان بك وتمكن شاه سوار من أن يسبق أخاه إلى عرش الإمارة ثم أتبع ذلك بمطاردته^(١٨) . وأجبر حشقدم مرة ثانية على الاتصال بمحمد الثانى رجاء الوصول إلى حل سلمى يحول دون نشوب القتال بين الدولتين . فأرسل قاصداً إليه فى عام ٨٧١ هـ ١٤٦٦ م يطلب منه عدم التدخل فى شئون إمارة دلنادر^(١٩) . هذا فى الوقت الذى كان محمد الثانى يفكر فى سبب للتحرش به ، فوصل قاصد من قبله إلى القاهرة فى

(١٧) النجوم الزاهرة ، طبعة W. Popper ، ج ٧ ، ص ٧٣٧ - منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥١٣ - ٥١٤ .

Artin : Zul - Kadr et Bab - Zoueleh, dans B.I.E., 2e sér, no 6, Le Caire 1886, p. 171 - Babinger : p. 490.

(١٨) النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة ، ج ٧ ، ص ٧٣٩ ، ٧٤٧ - منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥١٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ .

Artin : op. cit. p. 178 - Babinger : Ibid.

Wiet : Deux princes, Annexe I, p. 147.

(١٩)

نفس العام يطلب السماح له بمارة عين عرفة وقنوات المياه بمكة^(٢٠)، وواضح أن هذا الطلب في هذا الوقت بالذات ليس الدافع إليه الرغبة في عمل الخير ، وإنما يخفى وراءه تطلع العثمانيين نحو بلاد الحجاز والتمهيد لذلك بلفت أنظار المسلمين إليهم . وكان طبيعياً أن يرفض خشقدم ، إذ أن الدولة المملوكية كانت تصع في المقام الأول من سياستها المحافظة على سيادتها الفعلية على الحرمين الشريفين .

واضطرت الدولة المملوكية إلى التدخل الحربي لإعادة هيتها والمحافظة على حقوقها في إمارة دلفادر . وبدأت الحرب المعروفة بحرب شاه سوار وهي التي جُردت فيها ضده أربع حملات كبرى في عام ٨٧١هـ / ١٤٦٦ (في عهد خشقدم) وفي أعوام ٨٧٢ / ١٤٦٧ و ٨٧٣ / ١٤٦٨ و ٨٧٥ / ١٤٧٠ (في عهد قايتباي) . وكانت الهزيمة مصير الحملات الثلاث الأولى وعودة المساكر المملوكية على أسوأ حال ، هذا عدا الهزائم التي لحقت بالقوات الحلبية^(٢١) . أما الحملة الرابعة ، وهي التي تولى قيادتها يشبك من مهدى ، فقد انتهت في أوائل عام ٨٧٧هـ / ١٤٧٢ بالقبض على شاه سوار في قلعة زمنطو (قلعة Tsamandus البيزنطية ، وتسمى حالياً بقلعة العزيزية) والعودة به أسيراً إلى القاهرة حيث شنق على باب زويلة . وقبل عودة القوات المملوكية ، نصبت على عرش الإمارة أخاه شاه بوداق الموالى لمصر^(٢٢) .

Wiet : Ibid - Babinger : p. 491 - Laoust : Les gouverneurs (٢٠) de Damas sous les mamlouks et les premiers ottomans, trad. des Anales d'Ibn Tulun et d'Ibn Gum'a, Damas 1952, p. 31,32,33.

(٢١) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٣٠ - ٥٣١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٦٠٣ - ٦٥٠ [الحملة التي أرسلها خشقدم] ، ص ٦١٩ - ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٥ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣٣ - ٦٣٥ [٨٧٢ هـ] ، ص ٦٣٦ - ٦٣٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٤ - ٦٤٥ ، ٦٤٥ - ٦٤٨ ، ٦٧٢ - ٦٧٣ ، ٦٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧١٤ - ٧١٦ [٨٧٣ هـ] - ابن لياس : طبعة استامبول ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٧ ، ١٠ - ١١ ، ١٢ - ١٣ [٨٧٢ هـ] ، ص ١٤ ، ١٩ ، ٢١ - ٢٢ ، ٢٤ - ٢٦ ، ٢٧ [٨٧٣ ، ٨٧٥ هـ] .

(٢٢) تاريخ يشبك الظاهري، مخطوط استانبول رقم ٣٠٥٧، ورقة ١٢١ب - ١٣٨أ، =

هذا وجدير بالذكر أن هذا الانتصار على شاه سوار لم يوفق إليه المماليك إلا بعد نجاح السفارة التي أرسلها يشبك من مهدى إلى حسن الطويل في إقناعه بالكف عن مساعدته (٢٣). وكذلك بعد اتفاق قايتباي ومحمد الثاني على تقاسم النفوذ ، فينفرد العثمانيون بإمارة قرمان وينفرد المماليك بإمارة دلغادر . وقد دفعهما إلى ذلك اتفاقهما في الرأي على مواجهة أطاع حسن الطويل التوسعية في أعالي الفرات وفي آسيا الصغرى . ففي المعسكر الآخر ، كانت إمارة قرمان مسرحاً للقتال بين بير محمد يناصره العثمانيون ، وأخيه إسحق بك يناصره حسن الطويل الذي واصل قايتباي سياسة خشقهم إزاءه ومدّه بالمساعدة والمعونة . ومع هذا فما إن أحسّ بير محمد باستقرار عرش الإمارة نوعاً ما حتى دفعته كراهية القرمانية للعثمانيين التي تجرى في دمه ، إلى التمرّد على محمد الثاني والتطلع إلى محالفة البنادقة ضده . إذ كان يخشى ضم الإمارة نهائياً إلى الحكم العثماني وزوال استقلالها . وإزاء هذا الخطر ، فقد اضطر محمد الثاني إلى عبور البوسفور ، فدخل قونية في عام ٨٧٢ / ١٤٦٨ وسارع بير محمد بالفرار بمجرد اقتراب اقوات العثمانية منها ، وأعقب ذلك بضم الإمارة نهائياً إلى الدولة العثمانية وتولية ابنه مصطفى شلبي والياً عليها . ثم أخذت القوات العثمانية تقضى على جيوب المقاومة التي ترعّمها كلّ من إسحق بك وبير محمد الذي لجأ بدوره إلى حسن الطويل . واستمرت مقاومة الأميرين بضع سنوات بفضل مساعدة حسن الطويل لهما (٢٤) .

وهكذا فشلت الدولتان في القضاء على الخارجين على طاعتهما من أمراء التركان والقرمانية والدغادرية وأجبرتهما الظروف على التسليم بالأمر الواقع وتقاسم النفوذ.

== ١٥٤ ب - ١٧٢ - ابن اباس ، طبعة استانبول ج ٣ ، ص ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ - ٧٥ ٧٢ .

(٢٣) تاريخ يشبك الظاهري ، مخطوط استانبول ، ورقة ١٣٨ - ١٥٤ ب [سفارة قاضي المعسكر الشمس ابن أجا إلى حسن الطويل]

(٢٤) Hammer : III, pp. 137-138, 140-Babinger : pp. 325-

في هذا الوقت أرسل يشبك من مهدى ، قائد الحملة المملوكية الأخيرة في عام ١٨٧٦ / ١٤٧١ - ١٤٧٢ قاصداً إلى محمد الثاني يطلب منه السكف عن مساندة شاه سوار والوقوف موقف الحياد في النزاع بينه وبين أخيه شاه بوداق . ونجحت هذه السفارة وردَّ محمد الثاني قصَّاد شاه سوار الذين كانوا موجودين باستانبول وقتذاك يستنجدون به . ثم نشطت الدعاية المصرية تذييع في ربوع إمارة دلفادر تحلَّى السلطان العثماني عن مساعدته وعدم رضائه عنه ، فانفض من حوله أمراء التركان حتى اضطر إلى الاستسلام^(٢٥) . وأتاح انتصار محمد الثاني على البنادقة في عام ١٤٧٠ واستيلائه على جزيرة نجيرون تفرغه للقضاء على مقاومة الأمراء القرمانية ثم محاربة حسن الطويل وخاصة بعد أن علم باتصاله بالبنادقة بقصد التحالف معهم للإطباق على العثمانيين في آسيا وأوروبا في وقت واحد . وتمكن محمد الثاني من إيقاع الهزيمة بإسحق بك أمام مدينة العلايا في عام ١٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ ، ثم اتجه بقواته للملاقاة حسن الطويل الذي حلَّت به الهزيمة بالقرب من ترجان Terdjan في أول ربيع الأول ١٢٧٨ هـ / ٢٦ يوليو ١٤٧٣^(٢٦) . وبعد ذلك ببضعة أشهر حلَّت به هزيمة ثانية على يد المماليك^(٢٧) .

وعادت الدولة العثمانية مرة ثانية إلى سياسة المداراة والتظاهر بالملاقات الودية ، إذ شغل محمد الثاني بحرب البنادقة وهي الحرب التي ملأت الفترة من عام ١٤٧٤ حتى

(٢٥) تاريخ يشبك الظاهري ، مخطوط استانبول ورقة ١٣٨ ، ١٦٧ ، ١٦٧ - ١٦٧ ب - ابن إياس ،

طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

Artin : p. 179, 180.

Hammer : III, p. 141, 142-144, 151-168, 172-185- (٢٦)

Badinger : p. 325, 327, 361 - 363, 364, 370 - 371 - Grousset : Histoire de l'Asie, vol. III, Paris 1922, p. 127, 128, 129, 130, 131 suiv.

(٢٧) ابن إياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٨ -

الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك في مصر ، ص ٢٠٣

عام ١٤٧٩ وانتهت بعقد معاهدة الصلح معهم . ويكفينا دليلاً على ذلك أنه لم تسد
تنتهى هذه الحرب حتى أتجه محمد الثاني بقواته في عام ١٤٨٠ إلى آسيا الصغرى وعاد
إلى التدخل في شئون إمارة دلفادور تمهيداً لضمها وإتمام توحيد آسيا الصغرى (٢٨) .
ولم تغب عن قايتباي نوايا محمد الثاني ، وكان على يقين من أن الأمور مع العثمانيين
لم تسوّ بعد ، ولا بد من القتال في خاتمة المطاف . ومن ثم كانت رحلته التفتيشية إلى
آسيا الصغرى وأعلى الفرات في عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٦ م وهي الرحلة التي عمل أثناءها
على عمارة القلاع والحصون وشحنها بالحاميات والأسلحة وإصلاح طرق البريد وهو
أمرٌ على جانب كبير من الأهمية الحربية (٢٩) .

وقد تحقق ظن قايتباي ، فلم تعوز الوسيلة محمد الثاني ، إذ كان لا يزال يوجد لديه
باستانبول رصيد من الأمراء الدلفادريين اللاجئين إليه ، وهما علاء الدولة بك ،
وعبد الرزاق بك أصغر أولاد سليمان بك . وقذف محمد الثاني بعلاء الدولة الذي تمكن
في عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ بمساعدة القوات العثمانية من طرد أخيه شاه بوداق والترجع
على عرش الإمارة والاعتراف بالسيادة العثمانية (٣٠) . ثم تحرك محمد الثاني وعبر
البوسفور بجيشه إلى آسيا الصغرى ليكون على مقربة من تطور الحوادث . إلا أنه
توفي مسموماً في ٤ مايو سنة ١٤٨١ بالقرب من بلدة جبزة Ghebze وقد اتهم ابنه
بايزيد بدس السم له ، إذ أن العلاقات بينه وبين أبيه لم تكن طيبة في الفترة الأخيرة
نظراً لما يقال من أن الصدر الأعظم كان قد أقنع محمد الثاني بقولية عهده لابنه جم (٣١) .

(٢٨) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
والأستاذ توفيق أسكندر ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

Babinger:p. 490.

(٢٩) Devonshire:Rélacion d'un voyage du sultan Qaitbay en
Palestine et en Syrie, trad, de l'arabe, in B. I. F. A. O., T.xx, Le
Caire, 1921, pp. 1-40 - Wiet:L'Egypte arabe, pp. 594-595.

Babinger:p. 490-Artin p. 181.

(٣٠)

Babinger: pp. 491-492,493-494

(٣١)

وانتظر قايتباى لما عس أن يسفر عنه تطور الحوادث داخل الدولة العثمانية . فلم يلبث أن ثار النزاع بين الأخوين بعد أن أعلن جم نفسه سلطاناً للدولة العثمانية واتخذ مدينة قونية مقراً له ، وأقام الخطبة وضرب السكة باسمه . إلا أنه اضطر بعد هزيمته أمام قوات أخيه في موقعة بى شهر إلى الفرار ومعه والدته وزوجته إلى سورية . ولم يتمكن علاء الدولة ابن دلقادر من تنفيذ أوامر بايزيد من القبض عليه ومنعه من الالتجاء إلى الدولة المملوكية^(٣٢) ، فوصل القاهرة في شعبان ٨٨٦هـ / سبتمبر - أكتوبر سنة ١٤٨١^(٣٣) .

وحاول قايتباى فى بادى الأمر ، التوفيق بين الأخوين على أساس تقسيم السلطة بينهما فيحكم جم الولايات الآسيوية ويحكم بايزيد الثانى الولايات الأوروبية . إلا أن بايزيد ردّ على ذلك بعبارته المشهورة (لا أرحام بين الملوك) . ومن ثم أخذ قايتباى بعد العدة لأمداده بالمال والجند لرحيله إلى آسيا الصغرى للحصول على حقه بحد السيف ، على الرغم من عدم موافقة أمراء الممالك خشية أن يؤدى ذلك إلى نشوب القتال بينهم وبين العثمانيين ، والعهدة قريب بالهزائم التى حلت بهم على يد شاه سوار وحسن الطويل قبل انتصارهم الأخير عليهما^(٣٤) ، وعلى الرغم من خلو الخزان من

Thusane : Djem-Sultan (1459-1495), Paris 1892, pp. (٣٢)
39-40-Alderson : pp.6-7, 38-39.

Hammer : III, p. 347 - Thusane : pp. 47-48, 41-50 — (٣٣)
Wiet : Deux princes, pp. 139-140 —

ابن اياس ؛ طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٣٤) ابن اياس ، استانبول ، ج ٣ ، ص ١٨٦ — الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك

فى مصر ، ص ٢٠٤ .

Wiet : Deux princes, 140-141 — Hammer : III, pp. 351-356-
Thusane : pp. 50-51

[يذكر نقلا عن المراجع البندقية أن قايتباى أمدّه بمبلغ ٤٠ ألف دوكة وقوة عسكرية ، كما قدم له كل من نائب دمشق ونائب حلب ١٠ آلاف دوكة]

الأموال لكثرة ماصرف على التجاريد السابقة^(٣٥). إلا أن الظروف السياسية اقتضت دفع العثمانيين في غمار الحرب الأهلية ، حتى تتاح لقايتهى فرصة إبعادهم عن التدخل فى شئون إمارة دلغادر ، وتثبيت السيادة المملوكية عليها .

وغادر جم القاهرة تاركاً بها والدته وزوجته ثم ابنه عليا الذى وُلد فيها بعد^(٣٦) . وجاءت الأمور على غير مايشتهى قايتهى ، فحلت به الهزيمة وأجبرته الظروف فى هذه المرة على الالتجاء إلى فرسان الاسطارية بجزيرة رودس فى ٢٩ يوليو ١٤٨٢ ، بقصد العبور منها إلى أوروبا ومتابعة الحرب ضد أخيه معتمداً على أخواله المجرين . فأتمه چېك Gigeك كانت أصلاً مسيحية تمت بصلة القرابة إلى ملك المجر ما تياس كورفانوس Mathias Corvinus أخذت أسيرةً عندما اجتاحت والده محمد الثانى بلاد الصرب فى عام ١٤٥٩^(٣٧) . ولكن جم ، الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين عاماً أخطأ التقدير والحسبان فجزيرة رودس كانت هدفاً استراتيجياً لمحمد الثانى بعد انتهائه من ضم إمارة قرمان المقاتلة لها وخاصة بعد الدور الذى قام به فرسان الجزيرة من مساعدة البنادقة والأمراء القرمانية الخارجين على طاعته فى عام ١٤٧٣ ولم تكن مفاوضات الصلح التى قام بها الأمير جم بتكليف من أبيه بعد أن ولاه إمارة قرمان سوى ذرٍ للرماد فى العيون حتى ينتهى محمد الثانى من حربه مع البنادقة وهى الحرب التى انتهت بمقد الصالح معهم فى عام ١٤٧٩^(٣٨) . وإذا كان الفرسان قد تمكنوا من صد هجمات

(٣٥) بلغ مجموع ما أنفق قايتهى على التجاريد التى أرسلها ضد شاه سوار وحسن الطويل منذ عام ٨٧٢ هـ حتى عام ٨٧٧ هـ مبلغ ثلاثة ملايين وسبعائة وسبعين ألف دينار . انظر تاريخ الملوك الأشرف قايتهى ، مخطوط رقم ٦١ تاريخ ، دار الكتب ، ورقة ١٦ - ١٥ ب .

(٣٦) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ [الاحتفال بختان ابنه على مع ختان محمد بن قايتهى فى رجب ٨٩٥ هـ] ، ص ٢٨٦ [وفاته فى ذى الحجة ٨٩٧ هـ] .

(٣٧) Hammer : III, pp. 351-356 — Thuasne: p. 2, 52-56 —

Alderson: See table xxvii (Mehmed II and his family).

(٣٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارسطوقراطية ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

الأسطول العثماني على جزيرتهم في ذلك العام وفي العام الذي تلاه فإنها لم تنج من غزو محقق إلا بوفاة محمد الثاني فجأة على الشاطئ المقابل لها بآسيا الصغرى^(٣٩).

في هذا الوقت العصيب جاءت الأفقار بحجم سلطانا ووجد دوبوسون رئيس الفرسان الاستتارية في التحفظ عليه خير فرصة لمنع العثمانيين من غزو الجزيرة ، واضطر بايزيد الثاني إلى مفاوضته في عقد الصلح والرضوخ لشروطه . فقبل مرغماً أن يدفع له سنوياً مبلغ ٤٥ ألف دوكة في مقابل الاحتفاظ به ومنعه من استئناف القتال ضده . واقتضت خطة دوبوسون نقلهم في سبتمبر ١٤٨٢ إلى فيلا فرانكا أحد بيوت الفرسان الاستتارية بجنوب فرنسا ، بعيداً عن أعين العثمانيين ومناوراتهم لاستعادته^(٤٠) .

وما أن اطمأن بايزيد الثاني مؤقتاً باتفاقه مع دوبوسون حتى اتجه لمحاسبة المالك على موقفهم السابق من أخيه والعمل على تنفيذ سياسة أبيه من إتمام توحيد آسيا الصغرى تحت الراية العثمانية والقضاء على النفوذ المملوكي بها . وزاد في توتر العلاقات أن قايتباي قبل تجديد معاهدة الصلح مع فرسان الاستتارية في ٢٨ أكتوبر ١٤٧٩ عند ما شعروا بنوايا محمد الثاني العدوانية إزاء جزيرتهم^(٤١) . وهم بهذا يطبقون مبدأً رئيسياً من سيادتهم التي أملاها عليهم موقع الجزيرة بين العثمانيين والمالكي ومطمع كل منهما في الاستيلاء عليها . فقد درجوا على المبادرة بعقد الصلح مع إحدى الدولتين في الوقت الذي يكونون فيه على وشك الحرب مع الدولة الثانية حتى يتيح لهم ذلك

Thusne: pp. 11-18 — Babinger: p. 366. (٣٩)

Hammer : III, pp. 356-357 — Thusne: pp. 54-47, 57, (٤٠)
67-69.

Thuasne: p. 18 — Babinger: p. 466. (٤١)

فرصة التفرغ لمواجهة الخطر من جانب واحد^(٤٢). وواضح أيضاً أن استيلاء العثمانيين على الجزيرة يمثل خطراً موجهاً إلى المماليك وخاصة بعد وصول العثمانيين بامتلاكهم إلى الطرف الجنوبي من آسيا الصغرى، فضلاً عما يثير ذلك في نفوس المماليك من شجى بسبب فشلهم من قبل في غزوها. هذا بالإضافة إلى ما شاع في القاهرة من أن قايتباي راقت في عينه الهدية الحافلة التي أرسلها أحد ملوك الهند على يد بعض تجارهم إلى السلطان العثماني والتي احتاط عليها نائب جده وأحضرها إلى السلطان بالقاهرة، وكان من بينها خنجر ثمين^(٤٣). وإن صح هذا القول فإنه لا يعتبر سبباً كافياً يبرر نشوب الحرب بين الدولتين، ومن الجائز أن يُفسر تصرف قايتباي هذا في ضوء العلاقات العدائية القائمة فعلاً قبل ذلك بينه وبين محمد الثاني وابنه بايزيد الثاني.

وكيفما كان الأمر فما أن حلّ صيف عام ١٤٨٣، وهو الوقت المناسب للعمليات الحربية في هذه المنطقة الجبلية من آسيا الصغرى حتى تحرك علاء الدولة بن دلفار وخرج على طاعة الدولة المملوكية وأغار على مدينة ملطية تسانده القوات العثمانية، فخرجت العساكر المملوكية لرد عدوانه^(٤٤). وهكذا بدأت الحرب المملوكية - العثمانية التي انتهت بعقد الصلح بينهما في عام ١٤٩١^(٤٥). وانتصر المماليك في هذه الحرب

(٤٢) تطبيقاً لهذه السياسة عقد فرسان الاسبتارية الصلح مع مصر في عام ١٤٠٣ و ١٤٢٧ و ١٤٤٥. انظر:

Darrag: E'Egypte sous le regne de Barsbay, chap. VII (La conquête de Chypre), chap. IX (La politique de Barsbay en Méditerranée).

(٤٣) ابن إياس، طبعة استامبول، ج ٣، ٢١٠ - الدكتور زيادة: نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٥.

Thuasne: p. 142.

(٤٤) ابن إياس، نفس الطبعة والجزء، ص ١٩٧، ١٩٨ - Laoust p. 34

(٤٥) فيما يختص بهذه الحرب انظر:

الدكتور زيادة: نفس المقال ص ٢٠٥ - ٢٠٩

C. I. A., Egypte, I, pp. 549-550 et notes — Wiet: L'Egypte arabe, pp. 598-694 — Laoust- pp. 35, 36, 37, 38.

انتصاراً لم يكن يتوقمه المعاصرون ، وكان موضوع جم من غير شك أحد العوامل الرئيسية في هزائم العثمانيين المتتالية ، إذ أن بايزيد كان يحارب والخوف يملكه على عرش السلطنة ، فضلاً عن عوامل أخرى ليس هنا مجال إثباتها .

ولنترك موضوع الحرب المملوكية - العثمانية ، لنتابع مأساة جم وما أثارته من صراع دبلوماسى عنيف بين العثمانيين من جهة والمماليك من جهة ثانية ، وبين القوى الأوروبية التى ارتبطت عداوة أو صداقةً بهاتين الدولتين الإسلاميتين أو ببعضها البعض ، وهى فرسان الاستتارية بردوس ، والمجر ، والبندقية ، ونابلى ، وفلورنسة ، ودوقية سافوى ، وفرنسا ، والبابوية . ومن هنا كان الاختلاف الشديد فى موقف هذه القوى إزاء جم . فبعضها كان يسعى لتسلمه لاتخاذ ذريعةً لشن حرب تحريرية ضد العثمانيين بأوروبا . والبعض الآخر كان يتآمر لتسليمه إلى المماليك لتحقيق مصالحه الخاصة . وفريق ثالث كان يعمل جاهداً على التحفظ عليه حيث يقيم بجنوب فرنسا أو بروما بعد نقله إليها كوسيلة من وسائل تهديد العثمانيين تجنباً لحربهم وحرصاً على المحافظة على إسلامه بلاده من الغزو . وفشلت البابوية بسبب تضارب مصالح هذه القوى فى التوفيق بينها واغتنام هذه الفرصة لتكوين حملة صليبية عامة ضد العثمانيين والإطباق عليهم فى الجبهة الأوروبية فى الوقت الذى تتوالى فيه الهزائم عليهم على يد المماليك بآسيا الصغرى .

وفى الفترة ما بين عام ١٤٨٢ ، وعام ١٤٨٨ كان مركز الثقل السياسى لهذه المشكلة الدولية موزعاً بين ردوس ، وروما ، وباريس ، فهذه العواصم الثلاث كان بيدها وحدها حق تقرير مصيرهم ، وإليها اتجهت مجهودات جميع القوى المتنازعة عليه . ثم اتجهت الدبلوماسية الدولية نحو القاهرة فى عامى ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، وعلى الأخص قبيل الانتصار الثانى للمماليك على العثمانيين تحت أسوار أدنه وطرسوس فى ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ، وقبل بدء المعركة الثالثة بينهما فى عام ١٤٩٠ . فانتصار المماليك النهائى أصبح أمراً

كثير الاحتمال وبذل قايتباى بدوره جهداً كبيراً مع هذه الدول الأوربية لاستعادة جم استعداداً للجولة الأخيرة . وليس أدل على ذلك من أن القاهرة شهدت في هذين العامين استقبال عدة سفارات من المجر وفرنسا ودوقية سافوى وفلورنسة والبندقية والبابا أنوسنت الثامن وأيضاً العثمانيين الذين جاء رسولهم بعرض الصلح . وما أن عُقد الصلح بين المماليك والعثمانيين في عام ١٤٩١ حتى خف الاهتمام بأمر جم وفقد موضوع استعادته ما كان له من أهمية عظيمة .

وقد أوضحت لنا الدراسات التي قام بها فون همر Von Hammer وتوازن Thuasne سياسة العثمانيين وسياسة هذه القوى الأوربية إزاء جم . ولكن سياسة قايتباى في هذا الصدد لم تنل منهما مثل هذا القدر من العناية نظراً لبعدهما عن دراسة عصر قايتباى دراسة وافية شاملة . ويجمل بنا ، أن نوجز هنا عرض دراستهما حتى يلتقى ذلك ضوءاً كافياً يمكننا من تفهيم سياسة قايتباى .

أمّا بايزيد الثانى فقد سيطر موضوع جم على سياسته الخارجية سيطرة تامة ، وأدّى ذلك إلى هزيمته أمام المماليك ، وإلى توقف موجة الفتوحات العثمانية في أوروبا مدة طويلة^(٤٦) . وما كاد جم يصل إلى مقر إقامته حتى انشط بايزيد للعمل على استعادته أو للتأكد ، على أقل تقدير ، من عدم وقوعه في يد أعدائه . نفي عام ١٤٨٣ أرسل سفيره حسين بك إلى ردوس حاملاً إلى فرسان القديس يوحنا ، المبلغ المتفق عليه وهدية عزيزة عليهم ، ألا وهي اليد اليمنى لراعيهم القديس يوحنا حتى يسمحوا له بمواصلة السفر إلى جنوب فرنسا للاطمئنان على وجود جم تحت حراستهم . وفي فرنسا حاول السفير العثماني الحصول على وعدٍ من لويس الحادى عشر بالمحافظة على وجود جم في بلاده والامتناع عن تسليمه لأحدٍ من أعدائه مقابل أن يتعهد له بايزيد الثانى بدفع مبلغ كبير من المال كل عام وأن يقدم له جميع مخطفات القديسين الموجودة بالقسطنطينية . ولكن لويس الحادى عشر رفض التقيد بمثل هذا الوعد ،

على الرغم من نزعته الدينية وهو يعاني مرض الموت . وبعد وفاته جدد السفير العثماني هذا العرض على ابنه شارل الثامن ، إلا أن نصيبه كان الرفض أيضاً^(٤٧) . وحاول بايزيد محاولات أخرى مع كل من البندقية في عام ١٤٨٣ ومع البابا أنوسنت الثامن بعد نقل جم إلى روما في عام ١٤٨٩ ومع خليفته إسكندر بورچيا بعد عام ١٤٩٢ ، وكان الفشل نصيب هذه المحاولات جميعها^(٤٨) .

ووجدت الحرج في ذلك فرصة طيبة للهجوم على العثمانيين واستعادة ما انتزعته من بلادها ، في الوقت الذي يوجد فيه الجزء الأكبر من قواتهم العسكرية بآسيا الصغرى تحارب المماليك . وكان لها في قرابة الدم التي تربطها بجم وفي رغبته التي أبدتها بمجرد وصوله إلى فيلافرانكا من مواصلة السفر إلى الحرج لمواصلة حربه مع أخيه ما يقوى مطلبها الخاص بتسليمه^(٤٩) . فأعلن ملكها ماتياس كورفانوس في عام ١٤٨٢ استعداده لبدء حرب مقدسة ضد الأتراك إذا ما قام البابا بتسليمه إليه وقام ملوك أوروبا بمساندة جهوده والمهجوم على الدولة العثمانية بحراً . ولكن أحداً لم يستجب إليه فاضطر في العام التالي إلى عقد الهدنة مع بايزيد الثاني لمدة خمس سنوات^(٥٠) . وما أن انقضت مدة الهدنة هذه حتى فكر مرة ثانية في تجديد مسعاه ، وبخاصة أن الفرصة كانت مواتية لبدء هجومه على العثمانيين ، بعد هزيمتهم الأولى أمام المماليك ، واستعداد الفريقين للرحلة الثانية . فجاء سفيره إلى ردوس في ١٠ يونيو ١٤٨٨ يخبر دوبوسون أنه على اتصال ببعض كبار العثمانيين الذين وعدوه بالتخلي عن بايزيد ومساعدة جم إذا ما تقدم جم على رأس قواته . ولكن رئيس الفرسان كان يخشى تعرض الجزيرة للغزو من جانب الأسطول العثماني الذي عبر مياهها الإقليمية في ٢٨ مايو السابق ، في طريقه

Hammer : III, pp. 361-362, 365 — Thuasne : 104-105. (٤٧)

(٤٨) انظر بعد .

Hammer : III, p. 360, 363 — Thuasne : pp. 99-100. (٤٩)

Thuasne : pp. 120-103, 127. (٥٠)

نحو أدنة وطرشوس لمقاتلة المماليك ، ولذلك رفض استجابة طلبه وعلّق ذلك على ضرورة موافقة البابا^(٥١) . وبعد انتصار المماليك على العثمانيين في ١٥ أغسطس جدّد ملك المجر مسماه لدى البابا الذى كان يقوم فى نفس الوقت بمفاوضة شارل الثامن لنقل جم إلى روما حتى يتمكن من مهاجمة الأتراك فى هذا الوقت المناسب . ولكن البابا رفض تحقيق طلبه لأن شارل الثامن كان يشترط عليه مقابل السماح بتسليمه عدم تسليمه لأحدٍ إلا بموافقة شخصياً . ولذلك عاد ماتياس كورفانوس ، مضطراً للمرة الثانية إلى تجديد الهدنة القائمة بينه وبين بايزيد الثانى لمدة ثلاث سنوات أخرى^(٥٢) .

وكان فرديناند الثانى ملك نابولى وصقلية يسمى هو أيضاً لأن يكون جم تحت يده . إمّا لاتخاذ ذريعةً لمحاربة العثمانيين أو لسلامتهم . وإبعاد خطرهم عن مملكته ، أو لساومة المماليك على تحقيق أهدافه السياسية فى جزيرة قبرص . فالبنديقية بعد عقد الصلح مع محمد الثانى فى عام ١٤٧٩ حرّضته على مهاجمة مملكة نابلى التى كانت فى عدااء معها ، فتقدمت الأساطيل العثمانية نحو ميناء أترانتو Otranto فى عام ١٤٨٠ واستولت عليها ، إلا أنها أجبرت على الرحيل عنها فى العام التالى^(٥٣) . وعادت البنديقية مرة ثانية فى عام ١٤٨٤ إلى تحريض بايزيد الثانى على مهاجمة مملكة نابلى ولكن دوبوسون كان يخشى خروج الأساطيل العثمانية إلى عرض البحر خوفاً من أن تتحول إلى غزو جزيرة رودس ، ولذلك فقد ضغط على بايزيد للكف عن استعداداته الحربية ، مهدداً إياه بتسليم جم إلى أعداءه^(٥٤) ومن جهة ثانية كان فرديناند الثانى يعمل منذ مدة طويلة من أجل الحصول

(٥١) انظر بعد (العلاقات بين قابتباى وروودس والمجر فى عام ١٤٨٨)

(٥٢) Thuasne : p. 200.

(٥٣) شارل ديل : البنديقية ، ص ١٤٠ ، ١٦٨

Hill : A history of Cyprus vol. III, The Frankish period. 1432-1571, Cambridge 1948, pp.733-743.

(٥٤) Thuasne : 118-119.

على عرش قبرص لدون ألونزو Don Alonzo أحد أبنائه غير الشرعيين^(٥٥) . وكاذب
جم يقع في أيدي رجاله أثناء عبور السفينة التي تنقله عبر مضيق مسينا^(٥٦) . وما أن
وصل جم إلى جنوب فرنسا حتى بادر يطالب رئيس الاستبارية بتسليمه إليه . ثم عاد
لجدد مطالبته هذه في عام ١٤٨٥ بعد أن علم بنوايا بايزيد الثاني العدائية ضد مملكتيه^(٥٧)
وطلبه مرة أخرى البابا أنوسنت الثامن أثناء مفاوضاته مع شارل الثامن . إلا أن
البندقية كانت حريصة على إفساد مسماء ، فأخبرت البابا بأنه متفق سراً مع بايزيد على
تسليم جم له مسالمة له ، وبذلك سيتحول العثمانيون إلى محاربة البنادقة^(٥٨) .

أما البندقية فقد ظلت تندب الحظ الذي لم يمكنها وهي سيدة البحر المتوسط من
وقوع هذا الصيد الثمين في يدها^(٥٩) حتى تستطيع مساومة بايزيد الثاني بعد هذا
الصلح الشأن الذي اضطرت لعقده مع أبيه ، وهو الصلح الذي لم يترك لها سوى
بعض المراكز التجارية ذات القيمة الثانوية في شبه جزيرة المورة وبعض الجزر الصغيرة
في مدخل بحر الادرياتيك وجزيرة كريت وجزيرة قبرص التي كانت تباشر شئون الحكم
الفعلية فيها باسم الملكة كاترين كورنارو^(٦٠) . أما ولم يُقدّر لها ذلك فقد عملت
دبلوماسية احتفاظ بصدقة العثمانيين درءاً لخطرهم حتى تتفرغ لسياستها في
إيطاليا التي استلزمها انسحابها من شبه جزيرة المورة وبحر الأرخبيل ومواجهة القوى
الإيطالية المتحالفة ضدها وهي : البابا ونابلي وفرارا وفلورنسه وميلانو . وكانت

(٥٥) انظر بعد .

(٥٦) Hammer: : III, p. 358.

(٥٧) Thuasne : pp. 101-102, 133.

(٥٨) Ibid : p. 188.

(٥٩) Ibid : p. 198.

(٦٠) شارل ديل : البندقية ، ص ١٤٠

حريصةً أيضاً على أن تتوّج سياستها التي بدأتها في جزيرة قبرص عقب وفاة جيمس الثاني في عام ١٤٧٣ بضم الجزيرة إلى ممتلكاتها . ولم تكن تخشى البندقية على سياستها هذه جانب الماليك ، إذ قد عرفت بحبرتها الطويلة معهم كيف تحقق أغراضها مع سلاطينهم بدبلوماسية المرنة وبالأموال والهدايا التي كانت تقدمها إليهم وإلى كبار الأمراء ، وإنما كانت تخشى أن يتجه العثمانيون أثناء الحرب المملوكية العثمانية إلى انتزاعها واتخاذها قاعدة لهم في مهاجمة الشواطئ المملوكية^(٦١) . ولذلك كانت تعمل جاهدةً على أن يظل جم في نيس بعيداً عن مسرح الحوادث بالشرق الأوسط ، ومن أجل ذلك تصدت لإحباط إعادته إلى العثمانيين ووقوعه في يد أحد أعدائهم . واكتفت في عام ١٤٨٣ ببذل الوعود لبازيد الثاني عندما أرسل إليها إسكندر بك القائد الألباني المشهور يفادها في أن تعمل على تسليم جم إليه في مقابل التنازل لها عن شبه جزيرة المورة ، ولم تتحرك خطوة نحو تحقيق هذه الرغبة^(٦٢) . وفي العام التالي قابلت بكل تحفظ العرض الذي تقدم به دويوسون بأن يسلم إليها جم ، وقررت بعد أن ناقشته في جلسة سرية عدم الاستمرار في هذه المفاوضات لكيلا تثير شكوك السلطان العثماني^(٦٣) . وفي نفس العام اعتذرت للسفير الذي أرسله دوق سافوي الذي جاء يعرض عليها الاتفاق على تهريب جم إليها على أن تقوم البندقية بمساعدته في الحصول على حقوق الملكة شارلوت في عرش قبرص ، وهي الحقوق التي كان من المتفق عليه أن تؤول إليه بعد وفاة شارلوت^(٦٤) . بل ذهبت إلى أبعد من هذا ، إلى إحباط الاتصالات بين قايتباي ودوق سافوي^(٦٥) ، وإحباط مساعي ملك نابولي لدى البابا في عام ١٤٨٨^(٦٦) .

(٦١) انظر بعد .

(٦٢) Thuasne : 106.

(٦٣) Ibid : pp. 124-125.

(٦٤) Ibid : pp. 109-110

(٦٥) انظر بعد العلاقات بين قايتباي وقبرص وسافوي .

(٦٦) Ibid : 188.

وجاؤ البابا أنوسنت الثامن التوفيق بين هذه القوى الأوروبية المتعارضة . إلا أنه لم يوفق في ذلك بسبب سياسة البنادقة والروادسة الذين وضعوا في المقام الأول من سياستهم تجنب عداوة العثمانيين خوفاً على ممتلكاتهم ولما يعرفونه من فشل محققٍ للمشروعات الصليبية^(٦٧) . ولذلك بدأ البابا يفكر جدياً منذ عام ١٤٨٥ في نقل جم إلى روما والتحفظ عليه تحت يده إلى أن يحين الوقت المناسب لتنفيذ مشروعه^(٦٨) . وفي ١٣ فبراير ١٤٨٦ تمكن من الوصول إلى اتفاق مع دوبرسون في هذا الصدد ، مقابل منحه قبعة الكرديناليه والموافقة على ضم بعض طوائف الرهبان إلى طائفه فرسان القديس يوحنا مع ما يتبع ذلك من ضم أموالهم وممتلكاتهم^(٦٩) . وفي العام التالي نشط لمفاوضة شارل الثامن ملك فرنسا في نقله إلى روما وطالت هذه المفاوضات واستغرقت ما يقرب من عام نظراً لتشدد ملك فرنسا من جهة ، ونظراً للمحاولات التي قام بها كل من ملك المجر وملك نابلي ، وفلورنسة لتسلم جم . وأخيراً غادر جم جنوب فرنسا إلى روما في ٨ نوفمبر سنة ١٤٨٨ فوصلها في ١٣ مارس سنة ١٤٨٩^(٧٠) .

وما أن استقر المقام بجم في القصر البابوي حتى طلب من البابا السماح له بالسفر إلى القاهرة لرؤية والدته وزوجته وأولاده فلم يسمح له بذلك^(٧١) . وفي روما تقابل سفير بايزيد الثاني وسفير قايتباي ، كل منهما يحاول أن يحرك العواطف الإنسانية في قلب البابا حتى يطلق سراح جم ، ثم انتقل كل منهما من التوسل إلى المساومة . فعرض السفير العثماني أن يسلم للبابا جميع مخلفات القديسين الموجودة بالقسطنطينية ،

ibid : pp.126-127. (٦٧)

ibid : pp. 128-133. (٦٨)

ibid pp. 138-140 (٦٩)

ibid : p. 176—Hammer III, pp. 365-366 (٧٠)

Hammer : III, p. 376 (٧١)

وأشار السفير المصرى إلى انتصار المماليك على العثمانيين فى العام الماضى وطالب بتسليمه إلى قايتباى أو لأحد أعداء العثمانيين حتى يتحقق النصر النهائى على العثمانيين وأخيراً عندما وجد البابا معرضاً عنه طالبه بماله من سلطة روحية أن يعمل على أن يردّ دويوسون المبلغ الذى كان قد أخذه وهو ٢٠ ألف دوكانه ، للإيفاق منه على نقل جم إلى القاهرة حسب اتفاقه مع قايتباى (٧٢).

وإذا كانت فرص النجاح تكاد تكون معدومة أمام بايزيد الثانى فى استعادة جم ، فقد كان الأمل كبيراً لدى قايتباى فى نجاح مساعيه فى هذا الصدد إذ كانت تركّز دبلوماسيته على عوامل رئيسة ثلاثة تتصل بملاقاته مع هذه القوى الأوروبية .
وهى :

أولاً — خوف فرسان الاستبارية من أن يتحول بايزيد الثانى بأسطوله إلى مهاجمة ردوس فى حالة انتصاره على المماليك .

ثانياً — النزاع حول عرش قبرص بين أبناء حنا الثانى بعد وفاته فى عام ١٤٥٨ ثم طال هذا النزاع وتشعب واتسع نطاقه فشمّل كلا من البندقية ومملكة نابلى ودوقية سافوى .

ثالثاً — رغبة بعض الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وفلورنسة فى استئناف علاقاتها التجارية مع الدولة المملوكية ومنافستها للبندقية التى كانت تتمتع بالمركز التجارى الأول بها . وقد اشتدت هذه الرغبة بسبب تحول النشاط التجارى إلى أسواق الدولة المملوكية بعد استيلاء العثمانيين على امبراطورية طرايزون فى عام ١٤٦١ وعلى ميناء كافّا Caffa وغيرها من المراكز التجارية لجنوى فى شبه جزيرة القرم ، عام ١٤٧٥ وما ترتب على ذلك من القضاء على نشاط الأوروبيين التجارى فى البحر

Ibid : pp. 367-368 (٧٢)

الأسود ، وتوقف هذا النشاط تقريباً مع القسطنطينية بسبب حروب محمد الثاني مع البنادقة في شبه جزيرة المورة وبحر الأرخبيل .

أما رودس فقد سارع قايتباي يعرض عليها في عام ١٤٨٤ ، قبيل الحرب المملوكية العثمانية الأولى ، تجديد معاهدة الصلح معها للمرة الثانية. ووجدت رودس في ذلك العرض ما يجعلها تتفرغ لمراقبة حركات الأسطول العثماني أمام مياهها (٧٣) . وتحت ستار هذا التعاهد طالب قايتباي في العام التالي بتسليم جم له شدا لأزره وعوناً له على النصر ، واقتضى خوف دوبرسون من انتصار العثمانيين أن يتظاهر بالعمل على إجابة رغبة قايتباي ، بل دفعه دهاؤه إلى استغلال هذه الرغبة في الحصول على الأموال لتغطية المصاريف اللازمة لنقل جم والإنفاق عليه . ويقال في هذا الصدد أن دوبرسون كان يستغل إمضاء جم الذي انتزعه منه قبيل مبارحته رودس إلى فيلافرانكا فيكون له شرف المفاوضة باسمه وهي خسة أخذها عليه كل من أرخ حياة جم من المؤرخين المسيحيين (٧٤) .

وتمخضت الجولة الأولى في هذه الحرب عن انتصار المماليك في عام ١٤٨٦ ، فترأخى قايتباي في المطالبة بتسليمه إليه . إلا أنه عاود الاتصال بدوبرسون مرة ثانية عندما لاح في الأفق قرب التصادم ثانياً مع العثمانيين في عام ١٤٨٨ . وفي هذه المرة لم يشأ أن يرسل رسولا من المماليك وإنما اختار لهذه المهمة أحداً تابع فرديناند الثاني ملك نابلي الذين كانوا يقيمون بالقاهرة يواصلون التآمر ضد البندقية والسعى للحصول على عرش قبرص لابنه دون الونزو . ولنترك الكلام عن هذا المسمى حتى نعرض أولاً لموضوع النزاع على عرش قبرص .

فقد تجدد النزاع حول عرش قبرص بعد وفاة جيمس الثاني في عام ١٤٧٣ بين أخته الملكة شارلوت التي كان قد نجح في إقصائها عن العرش ، وبين زوجته الملكة

Thuasne : p. 120. (٧٣)

Ibid : p. 96, 133-135-Hammer : III, p. 363, 364. (٧٤)

(٧٥) انظر بعد

كاترين كورنارو إحدى شريفات البندقية . واشتد هذا النزاع بعد أن مات ابنه جيمس الثالث الذى ولد بعد وفاته فى ٢٦ أغسطس ١٤٧٤^(٧٦) . وقفت البندقية تؤازر « ابنتها » وباشرت شئون الحكم بالجزيرة ووضعتها فى حماية أحد أساطيلها^(٧٧) . ووقف فرديناند الثانى ملك نابلى بجانب شارلوت بعد أن تبنت ابنه دون الوزو وباركت مشروع زواجه من الأميرة شارلا وهى ابنة غير شرعية لأخيها جيمس الثانى وأخذت تعمل على إجلاسهما على عرش قبرص . فدبرت مع فرديناند خطف هذه الأميرة الصغيرة التى كانت مبعدة بالبندقية . ولما فشلت فى ذلك أبحرت فى عام ١٤٧٨ إلى الإسكندرية وبصحبتها دون الوزو للحصول على موافقة قايتباى ومساعدته . وأتبع فرديناند رحيلهما بأن أرسل إلى الإسكندرية أسطولاً يتكون من ٢٢ سفينة لنقلهما مع القوة التى يجردها قايتباى فى صحبتهما إلى قبرص . ورحب قايتباى بهما على الرغم من أنه لم يكن ميالاً للتدخل فى هذا النزاع طالما أن الجزيرة المقررة على الجزيرة تدفع له ، فقد وجد فى وجودها بالقاهرة أداة للضغط بها على البندقية إذا ما اضطرت الظروف إلى ذلك ، فلم يكن يخفى عليه السياسة التى انتهجتها بقبرص عقب وفاة جيمس الثالث إلا أن إقامة شارلوت بالقاهرة قد نعصها وفاة الأميرة شارلا فى عام ١٤٨٠ واتجاه فرديناند إلى تزويج ابنه من الملكة كاترين وكانت لا تزال شابة فى ريعان الصبا ، وخاصة بعد أن أبدت رغبتها فى الزواج لى تنجب وريثاً للعرش يفسد على البندقية خطتها . وأخذت فى الاتصال بأنصار فرديناند من النابليين والكتلان الموجودين

Ziada : The mamluk conquest of Cyprus in the fifteenth century, in 13, F. A., University of Cairo, vol. II, may 1943 (part II) pp. 44-54 — Hill : III, pp. 598-599, 601, 602, 603-604, 651-652, 658-663, 664-665, 669, 679, 711-712, 725. Hill : III, p. 690, 694, 695, 711-721, 717-720, 729, 733, (٧٧) 735-736, 737.

بالجزيرة . فتركت شارلوت دون الوزو وغادرت القاهرة في أواخر عام ١٤٨١ ووصلت روما في يناير من العام التالي^(٧٨).

وفي هذا العام أيضا توفي زوجها الملك لويس ، فواصل شارل الأول ، دوق سافوى الكفاح بعده بمقتضى الاتفاق الذى عقد مع شارلوت في عام ١٤٦٢ والذى ينظم حقوق آل سافوى في عرش قبرص إذا ما ماتت دون وريث لها^(٧٩). وجدّ في الميدان السياسى أيضاً موضوع جم ، فاتخذت منه هذه القوى المتنازعة وسيلة لمساومة قايتباى في تحقيق مصالحها . فبمجرد وصول جم إلى نيس قام دوق سافوى بزيارته وتقديم الهدايا إليه ، واعدأ إياه بالعمل على تخليصه^(٨٠). وفي عام ١٤٨٤ تعددت مساعيه لتحقيق أهدافه فأرسل سفيرا من قبله إلى البندقية يعرض عليها الاتفاق على تهريب جم إليها ، إلا أن البندقية اعتذرت لانشغالها في حرب فرارا . فأتجه إلى عدوتها فلورنسه وأوعز إليها بالعمل على إجلال شارلوت على عرش قبرص بالقوة ، إلا أن هذا المشروع أهمل أمره بعد أن عقد الصالح مع البندقية في ١٦ أغسطس من نفس العام^(٨١) وفي هذا العام أيضا قبضت سلطات البندقية بجزيرة مردون Modon على عميل من عملاء قايتباى يدعى نقولا النيقوسى Nicolas de Nicosie ومعه رسائل تؤكد الصلة بين الأمير جم وأمه عن طريق دوق سافوى . ولم تشأ البندقية أن تغضب قايتباى فاكثفت بإطلاق سراحه ومنعه من مواصلة رحلته إلى نيس^(٨٢).

Ibid : p. 601,604,605,606,607-608,609.610,664- (٧٨)
665,669,729-730 — Le Voyage d'Outremer de Jean Thénard, suivie de la relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d'Egypte en 1512 ed. Schefer, Paris 1884, pp. XXXI-XXXII.

Hill : III, p. 587,610. (٧٩)

Hammer : III, p. 360,391 — Thuasne:pp.99-100 (٨٠)

Hill : III, p. 611 (٨١)

Thuasne : p. 118 (٨٢)

وحاول السفير البندقي أثناء مفاوضاته التجارية مع قايتباي في عام ١٤٨٣ إيفار صدره إزاء دون الوزو ، إلا أنه لم يتمكن من ذلك بسبب وجود كثير من أفراد حاشيته بالقاهرة . وطال مقام هذا الأمير بالقاهرة دون أن يتخذ قايتباي أية خطوة في سبيل إجلاسه على عرش قبرص ، إذ لم ينجح أبوه في تسليم جم إليه ، فغادرها إلى نابلي حيث وصلها في ٢٧ سبتمبر ١٤٨٧^(٨٤) . وظل أتباعه بالقاهرة وعلى رأسهم رزودي مارينو Rizzo de Marino وترستانودي چيلتو Tristano de Gibleto يواصلون خدمة مصالحه ، وظل الاتصال قائما بين قايتباي وبين أبيه بعد رحيله^(٨٥) .

وقبيل نشوب المعركة الثانية ضد العثمانيين رأى قايتباي إرسال رزودي مارينو لمفاوضة رئيس الفرسان في تسليم جم له ، فوصل رودس في ١٠ يونيو ١٤٨٨ في نفس الوقت الذي وصل فيه سفير ملك المجر . وردّ دوبرسون مساعى السفيرين ، فما كان من رزودي مارينو إلا أن اصطحب معه إلى القاهرة السفير المجرى ، فوصلها في شهر (رجب ٨٩٣هـ / يونيو-يوليو ١٤٨٩) . وفي القاهرة تيسّر التفاهم معه بفضل وجود عدد كبير من كبار أمراء المماليك من أصل مجرى . وهم (الأسرى الذين أهداهم مراد الثانى إلى جقمق عقب انتصاره في موقعة ورنه Warna^(٨٦)) ويقال إن السفير المجرى تقابل في القاهرة مع رسول من قبل جم^(٨٧) ، لانهرف شيئا عنه ولاعن الظروف التي جاء فيها .

Hill : III, p. 735 (٨٣)

Ibid : p. 609 (٨٤)

(٨٥) ابن لياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ [في ذى القعدة ٨٩٢ هـ / أكتوبر-نوفمبر ١٤٨٧ كلف قايتباي قسم كنيسة القيامة بالقدس لإرسال أحدهم إلى صاحب نابلي ليكتب صاحب قشتالة بأن يحل عن أهل الأندلس ويرحل عنهم وذلك بعد أن وصل قاصد من صاحب الأندلس يطلب نجده]

Le Voyage d'Outremer, p. XXXII. (٨٦)

(٨٧) قارن بين مذكرته المراجع الآتية خاص بهذا السفير :

Thuasne : pp. 198-199 — Hill : III, p. 739. n. 3 — Wiet :

Traduction d'Ibn Iyas. Histoire des Mamlouks Circassiens, T. II, (872-906), Le Caire 1945, 284.

ابن لياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ص ٢٤٨ — الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٧ .

وكيفما كان الأمر فإن الجهود المشتركة لقائتباى وملك المجر لم تؤد إلى نتيجة ما .
وشهدت القاهرة في نفس العام وصول خطاب دوق سافوى المؤرخ في ١٨ أغسطس
سنة ١٤٨٨ على يد رسول من قبله يخبر قايّتباى بوفاة شارلوت في العام السابق بعد أن
صدّقت على وثيقة تنازلها له عن حقوقها في عرش قبرص ، وأنه يأمل بمساعدة الله
وبمساعده ، وهو السلطان الشرعى للجزيرة ، في استرداد حقوقه^(٨٨) . ومهما يكن
من الأمر فإن هذه الاتصالات لم تسفر عن شيء ما ، إذ رحل جم إلى روما في ٨ نوفمبر
من نفس السنة .

ومنذ عام ١٤٨٦ ، وعلى وجه التحديد قبيل نشوب الحرب العثمانية المملوكية
الأولى ، والبندقية تخشى على جزيرة قبرص من تحركات الأسطول العثماني والاستيلاء
على ميناء فاجوستا لاتخاذها قاعدة له في عملياته الحربية ضد السواحل الشامية .
فوضعت الجزيرة في حماية أحد أساطيلها وزوّدت قائده بعمليات محددة تقضى بمعاملة
الأسطول العثماني معاملة ودية وبأن يسمح لثمانية أو لعشر سفن فقط من سفنه بالرسو
في فاجوستا إذا ما طلب التزوّد بالمؤونة . واشتد هذا الخوف مرة ثانية قبيل نشوب
المركة الثانية بين العثمانيين والمماليك في عام ١٤٨٨^(٨٩) . ومن جهة ثانية اشتدت
المؤامرات ضد البندقية داخل وخارج الجزيرة ، وهى المؤامرات التى كانت تهدف إلى
زواج الملكة كاترين من دون الونزو . واكتشفت البندقية تأمر قايّتباى مع رزوى
مارينو ، وتريستانودى چيلتو ، من أتباع فرديناند الثانى ملك نابلى المقيمين بالقاهرة ،
بقصد تهريب الملكة من الجزيرة^(٩٠) . ولذلك قررت البندقية ، بعد هزيمة العثمانيين

(٨٨) Hill : III, p. 611-612, 614-615

(٨٩) Ibid : pp. 735-736.

الأستاذ توفيق اسكندر : سفارة بييرو ديدو ومعاودة تنازل مصر عن قبرص عام ١٤٩٠ ،
القاهرة ١٩٥٦ . انظر الوثيقة الأولى . [التعليقات إلى السفير البندقى والمؤرخة في ١٠ سبتمبر
١٤٨٩] ص ٥ - ٦ .

(٩٠) Hill : III, p. 738, 739-740, 741-742.

في ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ، رفع علمها على الجزيرة والضغط على كاترين للتنازل عن حقوقها ورحيلها للإقامة في البندقية ، وتم للبندقية ما أرادت في شهر مايو من العام التالي (٩١) . ثم أخذت البندقية بما عرف عنها من مهارة دبلوماسية ، تعمل على صبغ هذا التنازل بالصيغة الشرعية بالحصول على موافقة قايتباي صاحب السيادة على الجزيرة . فأرسلت في بادئ الأمر ، رسولها ماركو مالبيرو Marco Malipiero يمهّد لذلك بالتعاون مع قنصلها بالإسكندرية . ثم أرسلت سفيرها بييرو ديدو للانتهاء من هذه المهمة وزودته بالتعليمات اللازمة لذلك في ١٠ سبتمبر ١٤٨٩ . وكانت البندقية حريصة في تعليماتها للسفير ، أن يعالج في مهارة موضوع جم مع السلطان إذا ما سأل عنه ، فيجيب بأنه يقيم في القصر البابوي منعماً مكرماً . وأن يتجنب مقابلة والدته جم ، وإذا استلزم الأمر مقابلتها فيكون ذلك بعد الحصول على إذن السلطان وذلك جرياً على سياستها بالابتعاد عن هذا الموضوع . ووصل السفير البندقي إلى الإسكندرية في نوفمبر ولكن مفاوضاته بالقاهرة طالت ولم يتمكن من عقد المعاهدة التي تنظم العلاقة بين البندقية والدولة المملوكية بخصوص قبرص إلا في ٩ مارس ١٤٩٠ (٩٢) .

ويشير تقرير السفير البندقي إلى الدوج بعد وصوله إلى الإسكندرية والمؤرخ في ٢٤ نوفمبر سنة ١٤٨٩ إلى وجود رسول بابوي بالقاهرة ، ومعه رسول تركي حضر معه من روما من قبل جم ليطمئن والدته عليه ، وأن السلطان استقبله في ٦ أغسطس ثم أرجأ مقابلته الثانية له مدة أربعين يوماً بمناسبة حلول شهر رمضان والاحتفال بالعيد . وقد جاء الرسول البابوي يحمل خطاباً من البابا يهنيء فيه السلطان بانتصاره الثاني على بايزيد الثاني ويحثه على المشاركة على قتاله ، وأنه يريد أن يعلم من السلطان شخصياً رغباته بخصوص جم . ثم زار الرسول البابوي ومعه رسول جم والدته وطمأنها على

(٩١) Ibid : p. 737, 742-749, 750.

(٩٢) الأستاذ توفيق أسكندر: نفس المقال . الوثيقة الأولى ، ص ٧ ، والوثيقة الثالثة [معاهدة

تنازل مصر عن قبرص للبندقية والمؤرخة في ٩ مارس ١٤٩٠] ص ١٣ - ١٥

سلامته^(٩٣) / وتذكر بعض المصادر أن قايتباى كان يساوم البابا على تسليم جم له مقابل التنازل له عن القدس الشريف^(٩٤) ، وهذه مبالغة تبعد كثيراً عن الحقيقة . وحقيقة الأمر أن البابا استغل رغبة قايتباى فى استعادة جم لتحقيق مطلب للرهبان الفرنسيين المقيمين بدير صهيون بالقدس الشريف ، وهو مطلب تدخلت البابوية مرات سابقة لدى سلاطين المماليك لتحقيقه ، فهؤلاء الرهبان قد انتهزوا هذه الفرصة وطالبوا باستعادة القبر الذى يوجد به قبر داود عليه السلام ، وهذا القبر كان يعالوه قاعة الحواريين ومجاور من الجهة الشرقية للمكان الذى تناول فيه السيد المسيح العشاء الأخير مع حواربيه ، وهو الذى يعرف « بعُليّة صهيون - Caenaculum » والذى أقيمت فوقه كنيسة العُليّة . وكان هذا القبر بيد الرهبان الفرنسيين حتى انتزعه منهم اليهود مرتين فى عهد المؤيد فى عام ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م . وفى عهد رسباى ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م ، إلا أنهم نجحوا فى استعادته منهم عقب كل مرة . ثم آل أمره نهائياً فى عهد جقمق فى عام ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م بيد المسلمين وأقاموا به قبلة وحولوه إلى مسجد / وفضلاً عن ذلك فقد قام الرهبان فى شهر صفر ٨٩٤هـ / يناير - فبراير ١٤٨٩م ببناء كنيسة محدثة بالقرب من الدير فوق مقام يدّعون أنه مقام السيدة مريم عليها السلام / وليس من قبيل الصدف أن يكاف قضاء القدس ومشايخها فى شهر شعبان / يوليو من نفس العام ، وهو الوقت الذى كان موجوداً فيه الرسول البابوى بالقاهرة يبحث شكوى الرهبان بقصد استعادة هذا القبر الذى يدّعون أنه من حقوقهم ، ثم يعاد هذا الطلب فى أوائل عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م . ويبدو أن هذا التكميل لم يكن جدياً ، إذ كان يراد منه التظاهر بالعمل على تحقيق رغبة البابا أملاً فى أن يقوم من جانبه بإرسال جم إلى القاهرة . والدليل على ذلك أنه لم تتخذ أية خطوة إيجابية فى هذا الصدد ، إلا عند ما أصدر قايتباى مرسوماً شريفاً وصل إلى القدس فى آخر جمادى الآخرة من نفس العام ٩٠٠م ،

(٩٣) نفس المرجع السابق ، الوثيقة الثالثة [خطاب السفير البندقى إلى الدوج بعد وصوله إلى

الأسكندرية المؤرخ فى ٢٤ نوفمبر ١٤٨٩] ص ١٠ - ١١

(٩٤) الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٨ .

بأمر القضاة ومشايخ الإسلام يبحث موضوع الكنيسة المحدثه وموضوع القبو . فسارعوا إلى الاجتماع بالمسجد الأقصى بعد ذلك بيومين وقرروا هدم الكنيسة لأنها محدثة في الإسلام وبقاء القبو في يد المسلمين نظراً لما ثبت لديهم من عدم أحقية الرهبان في امتلاكه ونظراً لما سبق تحويله إلى مسجد يذكر فيه اسم الله (٩٥) . وواضح أن هذه الخطوة قد اتخذت بعد أن فشلت مساعي قايتباي مع البابا لاستعادة جم .

وشهدت السنوات التي كان جم مقياً أثناءها بجنوب فرنسا توقف العلاقات التجارية بين مصر وفرنسا . ووجد قايتباي في رغبة لويس الحادى عشر وشارل الثامن في العمل على استئنافها فرصة طيبة للمطالبة بتسليمه إليه . وكانت فرنسا قد بذلت جهوداً متواصلة لإنعاش تجارتها مع الدولة المملوكية بعد تدهورها عقب القبض على التاجر جاك كير Jacques Coeur ومحاكمته في عام ١٤٥١ ، والقضاء على احتكار التجار الإيطاليين للأسواق الفرنسية (٩٦) . إلا أن هذا النشاط قد توقف بعد الفارة

(٩٥) مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبعة القاهرة ١٢٨٣ هـ ، ج ٢ ص ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ — ٦٨١ — انظر دراستنا عن النزاع بين الرهبان الفرنسيين واليهود والمسلمين على قبر داود وعليه صهيون (تحت الطبع) .

(٩٦) في عام ١٤٥٦ أصدر شارل السابع عفوه عن جان دى فيلاج Jean de Village قريب چاك كير وأخلص رجاله ، ثم عينه لما له من خبرة بالشئون التجارية بالشرق قائداً للسفن التجارية الفرنسية المخصصة للبحار إلى الإسكندرية . وأتبع ذلك بأن أرسل في نفس العام سفيراً لدى السلطان المملوكي الأشرف ابنال يوصيه بحسن معاملة التجار الفرنسيين الوافدين إلى بلاده . ولكن هذا النشاط مالبت أن توقف بعد عامين بسبب نشوب الحرب بينه وبين الفونسو الخامس ملك نابلى وأراجون . وما إن انتهت هذه الحرب في عام ١٤٦٣ ، حتى بادر خلفه لويس الحادى عشر باتخاذ خطوات إيجابية لإنعاش التجارة الفونسية ، وذلك بمحاولة القضاء على منافسة التجار الإيطاليين والعمل على استئناف العلاقات التجارية مع مصر . فأصدر قراراً يحرم دخول البضائع الواردة من المشرق إلى فرنسا إلا عن طريق الموانئ الفرنسية الجنوبية . ثم قام ببناء أربعة سفن تجارية واختار لها ميناء أيج مورت Aigues-Mortes كقاعدة تبحر منها إلى الإسكندرية . وفي عام ١٤٧٦ حلت محلها مرسيليا على الرغم من أنها لم تكن تابعة وقتذاك لإنتاج الفرنسي . ونتيجة لهذه الجهود سجلت السنوات : ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٥ نشاط التجار الفرنسيين بميناء الإسكندرية . انظر :

التي شنها التجار البروفنساليون على ميناء الإسكندرية في عام ١٤٧٥ وقبضوا على عدد كبير من تجارها وكان بينهم بعض تجار السلطان كبن عليه وغيره ، وقابلت السلطات المملوكية هذا الإجراء بالقبض على جميع تجار الفرنج بالمدن والموانئ المصرية والشامية وألزمهم بمكاتبة ملك فرنسا لإطلاق سراح هؤلاء التجار . ونجحت جهودهم فأطلق سراحهم في العام التالي بعد أن اشتروا أنفسهم كما يقول ابن إياس (بمال له صورة ، وقد جرى عليهم أمور يطول شرحها حتى خلاصوا من بلاد الفرنج واستمر ابن عليية من يومئذ مريضاً إلى أن مات بعد مدة)^(٩٧). وفي عام ١٤٧٦ أرسل لويس الحادي عشر وزير ماليته ميشيل جيار Michel Gaillard للعمل على نحو الأثر السوء الذي تركته هذه الغارة وما ترتبت عليه من موجدة قاتلتها^(٩٨). ولكن جهودهم لم تسلك بالنجاح . والشواهد على ذلك عديدة . فنحن لا نلاحظ أي نشاط تجاري للفرنسيين بالإسكندرية في الفترة التي أعقبت ذلك . والرحالة الألماني فيلكس فابر Felix Faber الذي زار مصر في عام ١٤٨٣ يسجل خلو فندق الفرنسيين بالإسكندرية من البضائع والتجار^(٩٩). وأخيراً فإن الآثار التي ترتبت على هذه الغارة بالنسبة لبضائع وأموال التجار الفرنج المقيمين بالدولة المملوكية لم تسو إلا في عام ١٤٨٩ كما يستدل على

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 484-485 —
De Viriville : Histoire de Charles VII, Paris 1886, p. 440 —
Pigeonneau : Histoire du Commerce de la France, vol. I, Paris 1885, p. 366, 397 - Spont : La Bourgeoisie financière au début du XVI^e siècle, p. 3 et n. 2, p. 4 - Baratier et Reynaud : Histoire du Commerce de Marseille, T. II (1291-1480), Paris 1951, P. 354, 355-356-357, 362-363, 369.

(٩٧) ابن إياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ١١٠ ، ١١٥ .

Heyd : II, p. 496 et notes 5, 6 — Baratier et Reynaud : II, p. 366

Baratier et Reynaud : II, pp. 397-368 (٩٨)

Idid : p. ٤79 (٩٩)

ذلك من تقرير السفير البندقى بيرو ديدو إلى دوج البندقية فى هذا العام^(١٠٠) . وترتب على توقف العلاقات التجارية بين الدولتين أن تمكن التجار الإيطاليون من العودة إلى السيطرة على الأسواق الفرنسية وغمرها بالضائع المستوردة من الشرق . وقد اضطر شارل الثامن إلى التدخل لحماية التجارة الفرنسية عندما رفع إليه وزير ماليتها دوربول Doriole تقريره فى عام ١٤٨٨ عن مدى ما تعانيه التجارة الفرنسية من ركود . فأصدر فى هذا العام قراراً يحرم إدخال أية بضائع إلى فرنسا ما لم تكن منقولة على سفن فرنسية وفى نفس الوقت أرسل جيوم بريسونيه Guillaume Briçonnet للسمى لدى قايتباى من أجل استئناف العلاقات التجارية مع مصر والوصية بالتجار الفرنسيين . وانهز قايتباى هذه الفرصة وطالب بتسليم جم إليه ، ويذكر فى هذا الصدد أنه عرض مليون دو كاه مقابل ذلك^(١٠١) . ولكن قايتباى لم يكن فى حاجة إلى أن يعرض هذا العرض المالى ولا كان فى قدرته أن يفي به ، وإنما علق استئناف الفرنسيين لنشاطهم التجارى على تسليم جم له . وهو أمر تعذر تنفيذه نظراً للضغط الشديد الذى كان يبذله البابا لدى شارل الثامن منذ عام ١٤٨٧ لنقل جم إلى روما فضلاً من عدم رغبة شارل الثامن فى تسليمه إلى أية قوة من القوى التى تتنازع أمره . وهكذا فشلت جهود قايتباى ، وحرمت التجار الفرنسيون من الاتجار مع مصر فترة طويلة أخرى^(١٠٢) .

ويتضح من دراسة العلاقات التجارية بين فلورنسة ومصر أنها كانت موضوعاً للمفاوضات بين البلدين فى الفترة ما بين عامى ١٤٧٩ و ١٤٨٩ وتعثر هذه المفاوضات واستمرارها هذه المدة الطويلة يكشف عنه موضوع جم . فقايتباى انهز هذه الفرصة

(١٠٠) الأستاذ توفيق إسكندر : سفارة بيرو ديدو . الوثيقة الثالثة ، ص ١١ .

(١٠١) Pauqueville : Histoire du Commerce de France, dans Mémoires de l'Inst. Roy. de France. T. XI, p. 549 — Heyd : II, p. 488 — Thuasne : p. 200

الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) Heyd : II, p. 486 — Arnold von Harff : The pilgrimage of Arnold von Harff, p. 95.

لاستخدام فلورنسة كعميلة له في استعادة جم وكانت فلورنسة تتظاهر من جانبها بتحقيق رغبته ، ولكنها في حقيقة الأمر كانت حريصة على صداقة العثمانيين وعلى المحافظة على المركز التجارى الذى نالته بالقسطنطينية منذ عام ١٤٥٥ منافسة للبنادقة هناك^(١٠٣). وفوق هذا وذاك فإن عداؤها للبندقية ولسياستها فى الأرض اليابسة كان يقتضى منها أن يكون جم فى يدها تتخذه وسيلة لمساومة العثمانيين ضد البندقية^(١٠٤). وقد توقفت علاقاتها التجارية مع مصر ، على أثر الغارة التى شنها البروفنساليون على الإسكندرية فى عام ١٤٧٥ ، إذ أن انتقام قايتباى قد شمل جميع طوائف الفرنج^(١٠٥) ويتضح هذا من السفارة التى أرسلها قايتباى فى شهر ذى الحجة ٨٨٣ هـ / فبراير - مارس ١٤٧٩ إلى لورنزو العظيم ، الذى يسميه ابن إياس « ملك التليان » . وكان السفير المصرى أحد تجار الإسكندرية وهو الخوجا محمد بن محفوظ المغربى^(١٠٦) . وهذا السفير توالى سفاراته إلى فلورنسة فى عهد قايتباى ولعب دورا هاما فى المفاوضات السرية الخاصة باستعادة جم . واجتمع التجار الفريتيون فى ٢٧ نوفمبر ١٤٨١ ووضعوا مشروعا بالمقترحات التى يجب على السفارة المزمع إرسالها إلى القاهرة اتباعها فى مفاوضاتها . ولكن هذه السفارة لم يتيسر إرسالها إلى مصر وقتذاك مما دفع قايتباى

Pernoud : Les Villes Marchandes aux XIVe et XVe (١٠٣) siècles, Paris 1948, p. 122.

(١٠٤) انظر قبل الحرب بين البندقية وفلورنسة فى عام ١٤٨٤ .

(١٠٥) كان يمثل فلورنسة بالإسكندرية من عام ١٤٦٥ حتى عام ١٤٧٥ القنصل مريوتو

سكارسيالوبى Mariotto Squarcialupi

انظر : Heyd, II : p. 488 - Baratire et Reynaud II, p. 366.

(١٠٦) ابن إياس لوطبعة بولاق، ج ٢ ، ص ١٨٥ - مما هو جدير بالذكر أن طبعة استانبول،

ج ٣، ص ١٤٥ - ١٤٦ تذكر أن هذه السفارة أرسلت إلى ملك الكتان ، ولكن الصحيح ، بناء

على دراسة العلاقات بين فلورنسة وقايتباى ، أنها أرسلت إلى لورنزو العظيم . وقد وقع فى هذا الخطأ

أيضا الأستاذ فيت فى ترجمته الفرنسية لهذا الجزء . انظر :

Wiet : Traduction d'Ibn Iyas, p. 106.

إلى إعادة إرسال الخوaja ابن محفوظ مرة ثانية إلى فلورنسة في عام ١٤٨٤ (١٠٧) ، وكان قد جدّ في الميدان السياسى موضوع جم .

وبدأت فلورنسة اتصالاتها بجم حذرةً من لفت الأنظار إليها . فدفعت أحد رعاياها وهو فرانسيسكو برلنجييري Francesco Berlinghieri إلى إهداء جم نسخةً أنيقة من كتابه عن جغرافية العالم ، وجاء في كلمة الإهداء المؤرخة في ٣١ مايو ١٤٨٤ « أنه يقدم إليه مؤلفه هذا بعد ما علم عن طريق أحد الفرقتين المخلصين لشخصه العظيم ، وهو باولودى كول Baolo di Colle اهتمامه بالأدب راجيا أن يذكره الأمير يوماً ما عندما يجلس على عرش أجداده » . وباولو هذا هو أحد التجار الفرقتين الذين كانوا يترددون على مصر ، فنجدته بعد ذلك بعامين أو ثلاثة في القاهرة يتولى أمر المفاوضات التجارية مع قايتباى (١٠٨) .

ولكن هذه المفاوضات لم يتيسر نجاحها لأمرٍ لانهله . فعاد قايتباى إلى إرسال الخوaja ابن محفوظ مرة ثالثة إلى فلورنسة وكان في صحبته هذه المرة مترجم من صقلية ، فوصلها في ١١ نوفمبر ١٤٨٧ وقدم إلى لورنزو العظيم الهدايا الحافلة التى أحضرها له ، وكان من بينها أسد وزرافة أثارت دهشة الفرقتين وإعجابهم . ثم اجتمع به لورنزو على انفراد حيث أخبره برغبة قايتباى في نقل جم إلى مكان آخر أكثر أمناً لاتصل إليه يد أخيه بايزيد الثانى ، وأنه على استعداد لدفع مبلغ كبير من المال لوضمه تحت يد البابا أو أن يسلمه البابا إماماً للملك المجر وألملك نابلى أو إلى البنادقة ، وبذلك يحول البابا دون أن يقوم الأتراك

Amari : I diplomi arabi del R. Archivio Fiorentino, (١٠٧)
Firenze, 1863, p. 361-362, document no XLIV — Heyd : II, p.
488. n. 2 Malfoto ou

[وهو كما جاء ذكره في الوثيقة محرراً Mazamet Elmalfet]

Heyd : II, p. 488 — Thuasne : p. 117 (١٠٨)

فيما يختص بميل جم إلى دراسة الأدب و نظم الشعر انظر : الدكتور حسين مجيب المصرى : تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٤٧-١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ .

بأى عمل هجوى ضد أحدهم ، على أن يظل هذا الاتفاق سرا بين هذه الحكومات التى يهملها الأمر . وكان السفير المصرى يحمل أيضا خطاباً من الخليفة العباسى بالقاهرة موجهاً إلى البابا أنوسنت الثامن يذكر فيه أن جم لم يلجأ إلى رودس إلا بعد أن وعده دوبوسون بالأمان ولذلك فإن واجب البابا وهو الرئيس الأعلى للمسيحيين أن يبرّ بهذا الوعد وأن يردّ إلى جم حريته ويميده إلى والدته وزوجته . وطلب السفير من لورنزو أن يمهّد له تدبير مقابلة البابا بروما . وتصادف أن مر بفلورنسة فى ذلك الوقت رسولان من قبل البابا فى طريقهما إلى باريس لمفاوضة شارل الثامن فى أمر نقل جم إلى روما وتجاهلاً لإخطار لورنزو بقصدهما عندما علما بوحود السفير المصرى^(١٠٩) . ولذلك بادر لورنزو بإخطار البابا بأمر هذه السفارة خشية أن يُتهم بالتآمر مع إحدى الدول الإسلامية ، وعرض على البابا إرسال السفير المصرى إلى روما لمعالجة الموضوع مباشرة معه ، وقد وجد البابا فى هذا العرض المالى الذى عرضه السفير ما يكفل نجاح مفاوضاته مع ملك فرنسا ، إذ أن ذلك ييسّر تدبير المال اللازم لنقله والإنفاق عليه^(١١٠) . وفى نفس الوقت سارع لورنزو بإبلاغ بايزيد الثانى نبأ هذه السفارة حتى لا يثير شكوكه وعداوته^(١١١) ، وعمل أيضا على السعى لدى شارل الثامن ، فى الوقت الذى كان البابا يقوم بنفس السعى لديه ، فأرسل إليه سفيرا قدم فيما قدم له من هدايا الزرافة التى أرسلها قايتباى وعرض عليه تسليم جم مقابل مائة ألف دوكة^(١١٢) .

ونحن لانعرف على وجه التحديد ، هل تمكن السفير المصرى من مقابلة البابا وتسليم خطاب الخليفة إليه أم لم يتمكن من ذلك ، ولكن الأمر المؤكد أن المفاوضات التجارية ظلت معقدة إذ يبدو أن إتمامها كان متوقفا على لورنزو فى تسليم جم إلى قايتباى . والوثائق الخاصة بهذه المفاوضات فى هذه الفترة التالية مضطربة فى هذا

Thuasne : pp. 173-174. (١٠٩)

Ibid : pp. 174-176 et notes — Heyd : II, p. 489. (١١٠)

Thuasne : p. 175 et n. 2 (١١١)

Ibid : p. 192. (١١٢)

الصدد . فهي تشير إلى تكليف السفير الفلورنسى لويجي دى أنجولو دلاستوفا Luigi d'Angolo della stoffa بالسفر إلى القاهرة في ١٠ نوفمبر ١٤٨٨ والتنبيه عليه بضرورة المرور أولاً على روما لمقابلة الخبر الأعظم ثم على نابلي لمقابلة فرديناند^(١١٣) . ومن بين هذه الوثائق مرسوم قايتباي أصدره إلى نائب الإسكندرية مؤرخ في ٦ من محرم ٨٩٤/١٠ ديسمبر ١٤٨٨ يبلغه فيه أن لقنصل الفرنتيين بالإسكندرية وسائر بلاد السلطان جميع الحقوق والامتيازات الممنوحة لقناصلة البندقية ويطلب منه تخصيص مكان للفرنتيين ينزلون به^(١١٤) . ومن الشكوك فيه أن السفير الفلورنسى قد تمكن من قطع هذه الرحلة الطويلة ثم الاتفاق مع قايتباي في مدى شهر واحد^(١١٥) . والثابت أن فلورنسة لم تتمكن من الاتفاق مع قايتباي إلا في شهر نوفمبر ١٤٨٩ ، كما يستدل على ذلك من المكاتبة التي أرسلها إلى لورنزو والمؤرخة في ٢٤ من ذى الحجة ٨٩٤هـ/١٨ نوفمبر ١٤٨٩^(١١٦) ، ومن تقرير السفير البندقى إلى دوج البندقية والمؤرخ بالإسكندرية في ٢٤ نوفمبر من نفس العام . وفي هذا التقرير يذكر السفير أن السفير الفلورنسى الذى كان موجوداً بالقاهرة لم يدع فرصة دون أن يتحدث جلياً عن شئون البندقية^(١١٧) . ولا نعلم على وجه التحديد ما اتفق الطرفان عليه بخصوص جم . فهل وعدت فلورنسة بالعمل على تسليمه إلى قايتباي ؟ المعروف أن جم ظل مقيماً بروما ولذلك فإن هذه المعاهدة لم يقدر لها أن تنفذ وظلت بدورها حبراً على ورق ولم يتيسر للفرنتيين التعاهد مرة ثانية مع قايتباي إلا بعد وفاة جم ، عن طريق السفير المصرى ابن محفوظ أيضاً في جمادى الآخرة ٩٠١هـ / فبراير ١٤٩٦^(١١٨) .

Amari : pp. 372-374, document ne XLXI. (١١٣)

Ibid : pp. 382-386, document no XLVIII. (١١٤)

Ibid : p. 486. (١١٥)

Ibid : pp. 181-183, document no XXXIX. (١١٦)

Heyd : II, pp. 487-490

(١١٧). الأستاذ توفيق إسكندر : سفارة يبرو ديدو ، الوثيقة الثانية ص ١١ .

Amari : pp. 184-409, document no XL. pp. 210-213. (١١٨)
document no XLI.

وإذا كانت دبلوماسية قايتباي لم تنجح في عامي ١٤٨٨ و ١٤٨٩ على الرغم من فرص النجاح العديدة أمامها في استعادة جم ، فقد فقد الأمل في ذلك بزوال هذه الفرص ذاتها . ففشلت مفاوضاته التجارية مع فرنسا . ثم نقل جم إلى روما أبعد احتمال التفاهم مع ملك فرنسا ودوق سافوى ، وتصفية النزاع على عرش قبرص وضمتها إلى البندقية أخرج فرديناند الثاني ملك نابلي ودوق سافوى أيضاً من ميدان المساومة . وكذلك مفاوضاته الطويلة مع فلورنسة ، ومع البابا لم تأت بأية نتيجة .

ومع ذلك جادت الأقدار على غير موعدٍ بما يمكنه من النصر النهائي على العثمانيين أو على الأصح انسحاب العثمانيين من هذه الحرب بعد أن خرج علاء الدولة بن دلقادر على طاعتهم وانضم إلى المماليك عقب الهزيمة التي حلت به وبالعثمانيين في أغسطس ١٤٨٨ ربما لأنه خشي على نفسه وعلى إمارته والنصر النهائي للمماليك أصبح أمراً مفروغاً منه ، أو ربما يعزى ذلك إلى دبلوماسية الأمير الكبير أوزبك قائد المساكر المملوكية الذي وفق في اجتذابه إلى جانب المماليك . بل زاد على ذلك أماناً له بأن تزوج من ابنته^(١١٩) وانتقاماً منه دفع بايزيد ضده أخاه شاه بوداق الذي كان قد تمكن من الفرار من قلعة دمشق في شوال ٨٩٢هـ / أكتوبر ١٤٨٦ ولجأ إليه ، فأبقاه إلى جانبه انتظاراً لما عسى أن تتمخض عنه الحوادث ثم أمدّه بالمساكر العثمانية وأغار على أخيه بعد عصيانه في ربيع الآخر ٨٩٤هـ / مارس - إبريل ١٤٨٩ إلا أن النصر لم يكن حليفه وخابت آماله في عرش الإمارة ، فلم يلبث أن قدم القاهرة في محرم ٨٩٥هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٤٨٩ مفارقاً بايزيد الثاني^(١٢٠) . وهذا يفسر الانتصارات السريعة لأوزبك في حملته الثالثة بآسيا الصغرى في العام التالي ضد الحاميات العثمانية بقلعة الكولك

(١١٩) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢٦٢

Artin: p. 182, 183-184, 185.

(١٢٠) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٣٩ ، ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٣٧٩

[ظل شاه بوداق مقبلاً بالقاهرة حتى توفي بها بالطاعون عام ٩٠٣ هـ] -

Artin : pp. 182-183.

وقيصرية، ورجوعه إلى القاهرة دون أن يشتبك في قتال فعلي مع القوات العثمانية الرئيسية (١٢١).

في هذه الأثناء وصل إلى استانبول سفير سلطان تونس الفقيه مفتي على عربي يمرض وساطته لإنهاء النزاع بين بايزيد وقايتباي (١٢٢). واستجاب بايزيد لهذه الوساطة فأرسل قاضي قضاة بروضة الشيخ على جلبى إلى القاهرة فوصلها في إبريل ١٤٩١ ولم يفادها في أواخر العام التالى إلا وكان الصلح قد تم وردت إلى الدولة المملوكية القلاع التى كان العثمانيون قد استولوا عليها (١٢٣).

ونشط بايزيد للمرة الأخيرة لاستعادة جم، أو للتخلص منه بعد وفاة البابا أبوسنت الثامن وتولى اسكندر بورجيا عرش البابوية ووجد في الصفات التى عرف بها هذا البابا ما شجعه على ذلك. وكان بصحبة السفير العثماني السفير المصري، الشيخ عبد المؤمن الفارسي الذى أرسله قايتباي إلى استانبول في عام ١٤٩٤ لتمكين أوامر الصداقة بين الدولتين (١٢٤). إلا أن هذه المفاوضات قطعها دخول شارل الثامن ملك فرنسا روما ثم تسلمه جم ورحيله معه إلى نابلي حيث توفى بها في ٢٤ فبراير ١٤٩٥ بعد يومين من دخولها المدينة.

(١٢١) ابن اياس، نفس الطبعة والجزء، ص ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧،
٢٦٨، ٢٦٩ — الدكتور زيادة: نهاية السلاطين المماليك، ص ٢٠٩ —

C.I. A., Egypte I, pp. 549-651 — Wiet: L'Egypte Arabe, pp. 598-603.

Artin: pp. 185-186. (١٢٢)

(١٢٣) ابن اياس، نفس الطبعة والجزء، ص ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧ — الدكتور زيادة:
نفس المقال، ص ٢٠٩ — ٢١٠.

Hammer: III, p. 368. (١٢٤)

ابن اياس، نفس الطبعة والجزء، ص ٣٠٩ — الدكتور زيادة: نفس المقال، ص ٢١٠.

وتجمع المصادر على وفاة جم بالسهم البطيء وتذهب في ذلك مذاهب شتى من توزيع الاتهامات هنا وهناك ضد من تأمروا عليه^(١٢٥). ويهمننا في هذا الصدد أن ثبت هنا رأياً جديداً ذكره مؤرخ مكة قطب الدين النهروالي ، فيذكر أن السلطان بايزيد أرسل إليه أحد عبيده في صورة حلاق فاستخدمه وأمره أن يحلق له فحلق له رأسه بموسى مسمومة وهرب في الحال وأثر السم في رأسه وسرى إلى بدنه إلى أن مات^(١٢٦).

وأرسل شارل الثامن مع السفيرين مخلفات جم ومن تبقى بجواره من أتباعه حتى أيامه الأخيرة^(١٢٧). وكان من بين هذه المخلفات التي حملها أحد الأتباع بيضاء كان جم قد عودها على أن تصبح عليه كل صباح قائلة (نصر الله السلطان جم) وفي استانبول صبغ هذا التابع ريشها بالسواد وعلمها قولاً آخر ثم قدمها إلى بايزيد فقالت له (رحم الله السلطان جم)^(١٢٨).

أحمد السيد دراج

Hammer : III, pp. 370-375 — Alderson : table (١٢٥)
XXVII et note 18.

(١٢٦) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٢٥٩

(١٢٧) Hammer : III, p. 374-875.

(١٢٨) الدكتور حسين مجيب المصري : فارسيات وتركيات ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٧٣ - ٧٤ .